الفصل الثَّالث
وقفات مع تزييف الباطل والتباسه بالحقّ

تمهيد:

إن لدراسة التباس الحقّ بالباطل أهميَّة كبرى لما ينتج عن ذلك التَّلبيس من تزييف وفتنة يكون لهما الأثر السَّيئ والضَّرر البالغ في تضليل الأمَّة وتزوير الحقائق وافتعال الأحداث، وتعود أهميَّة هذا الموضوع إلى ما يلي:

١- إن القيام بالعبوديَّة لله ﷻ لا يتم إلا بالإخلاص له ﷻ، واتِّباع ما جاء به الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مع البصيرة بالدِّين، وهذا كله لن يتحقَّق مادام الحقّ ملتبسًا بالباطل ، وهذا يستلزم تنقية الحقّ من الباطل قال ﷻ : ﴿ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾[البقرة: ٢٥٦].

٢- كثرة التَّلبيس والتَّضليل في عصرنا بوسائل إعلاميَّة ماكرة مضلِّلة تلبِّس على النَّاس دينهم وتخلط الحقّ بالباطل، بل وصل الأمر لدرجة قلب الحقائق وإظهار الحقّ في صورة الباطل، والباطل في صورة الحقّ، وذلك لطمس الحقّ أو تشويهه، وتشويه حَمَلته والدَّاعين إليه، فكان لابدَّ من إزالة هذا اللَّبس لإحقاق الحقّ وإبطال الباطل بقدر المستطاع ﴿ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٨ ﴾ [الأنفال] .

٣- السُّكوت المزعج لكثير من العلماء وطلبة العلم في ديار الإسلام أمام كثير من المستجدَّات والنَّوازل التي تبحث فيها الأمَّة عن الموقف الشَّرعيِّ إزاء تلك النَّوازل، مما حدا بذوي القلوب المريضة في غيبة العلماء أن يلبسوا على الأمَّة أمرها، وتكلمت الرُّوَيْبِضَة في أمر العامَّة، والأدهى والأمَرُّ أن من أهل العلم من يساهم في هذا التَّلبيس، فتراه يسمِّي الأمور بغير أسمائها، وينزل النَّوازل في غير مناطاتها، بل قد يُثني على المُبطِلين ويغضُّ من قدر المصلِحين!!

٤- أهمية تعرية الباطل وأهله، فمادام الحقّ مختلطًا بالباطل، وسبيل المجرمين لم تتميَّز عن سبيل المؤمنين، فإن الدِّين سيبقى مشوَّهًا عند النَّاس،

وسيبقى التَّلبيس فيه قائمًا ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

٥- ضرورة بيان حال دعاة العَلْمَنة في كثير من بلدان الإسلام، وما يُضفونه على مخطَّطاتهم الظَّالمة من تبريرات لظلمهم وادِّعاءاتهم التي قال الله ﷻ في مثلها: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة].

٦- ظهور بعض المغالطات من كثير من النَّاس واستخدامها في تبرير المواقف الخاطئة والمخالفات الشَّرعيَّة، سواء أكانت فرديَّة أو جماعيَّة، فينبثق عنها مواقف وممارسات خاطئة تلبِّس على النَّاس أمرهم، ومنشأ هذه المغالطات في الغالب شَهوة مُزِجت بشُبهة فتولَّد عن ذلك مغالطة، وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

*** وقفات مع تزيين الباطل والتباسه بالحقّ:**

- الوَقْفَة الأولى:

قال ﷻ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة].

وقال ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾﴾ [آل عمران].

وهاتان الآيتان وإن كانتا قد نزلتا في أهل الكتاب فالعبرة بعموم اللَّفظ لا بخصوص السَّبب، كما هو مقرَّر عند علماء الأصول، فكل من كتم الحقّ وخلطه بالباطل وهو يعلم فهو من أهل هذه الآية، وسوف نحاول كشف بعض الصُّور التي التبس فيها الحقّ بالباطل، والتي يقع فيها بعض المنتسبين لهذا الدِّين من المنافقين وضعاف الإيمان لتبرير الانحراف أو التَّهوين منه أو

الرِّضا به أو إقراره، بل إن بعض الطيِّبين من دعاة وطلاب علم قد تأثَّروا بأولئك الملبِّسين، فصاروا يردِّدون بعض ما يقولونه بعلم أو بغير علم.

ولذا ينبغي أن نتعرَّف في هذا السِّياق على بعض المصطلحات المتعلِّقة بهذه المسألة:

أولًا: اللَّبْس والتَّلبيس:

قال في لسان العرب: (واللَّبْسُ واللَّبَسُ: اخْتِلَاطُ الأَمر. لبَسَ عَلَيْهِ الأَمرَ يَلْبِسُه لَبْساً فالْتَبَسَ إِذا خَلَطَه عَلَيْهِ حَتَّى لَا يعرف جِهَتَه ، والْتَبَسَ عَلَيْهِ الأَمر أَي اختلَطَ واشْتبَه. والتَّلْبيسُ: كالتَّدْليس والتَّخليط، شُدِّد لِلْمُبَالَغَةِ.. وَرُبَّمَا شُدَّدَ لِلتَّكْثِيرِ.. يُقَالُ: لَبَسْت الأَمر عَلَى الْقَوْمِ أَلْبِسُه لَبْساً إِذا شَبَّهْتُه عَلَيْهِمْ وجَعَلتُه مُشْكِلًا)[1] .

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « التَّلبيس إظهار الباطل في صورة الحقّ »[2].

ومن ذلك قوله ﷻ : ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة] .

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند هذه الآية : « إِنَّهُ مَنْ لَبَّسَ الحقّ بِالْبَاطِلِ فَغَطَّاهُ بِهِ فَغَلِطَ بِهِ لَزِمَ أَنْ يَكْتُمَ الحقّ الَّذِي تَبَيَّنَ أَنَّهُ بَاطِلٌ؛ إِذْ لَوْ بَيَّنَهُ زَالَ الْبَاطِلُ الَّذِي لَبِسَ بِهِ الحقّ »[3].

ثانيًا: الأغاليط والمغالَطات:

قال في لسان العرب: (المَغْلَطةُ والأُغْلُوطةُ: مَا يُغالَطُ بِهِ مِنَ الْمَسَائِلِ، وَالْجَمْعُ الأَغالِيطُ)[4].

قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : " أَنْذَرْتُكم صِعابَ المَنْطِق " يريد المسائل

---

(١) لسان العرب، لابن منظور (٦/ ٢٠٢- ٢٠٤).

(٢) تلبيس إبليس، لابن الجوزي ، صـ ٣٦

(٣) كتب ورسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيميَّة (١٩/ ١٩٤).

(٤) لسان العرب، لابن منظور (٧/ ٣٦٣)..

الدَّقيقة الغامِضة[1].

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديث المشهور في الفتن : "إني حَدَّثْتُه حَدِيثًا لَيْسَ بالأَغالِيطِ" [2].

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِي: « شِرَارُ عِبَادِ الله الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ شِرَارَ الْمَسَائِلِ يُعْمُونَ بِهَا عِبَادَ الله » .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ: « إِنَّ اللهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحْرِمَ عَبْدَهُ بَرَكَةَ الْعِلْمِ، أَلْقَى عَلَى لِسَانِهِ الْمَغَالِيطَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ أَقَلَّ النَّاس عِلْمًا »[3].

والحاصل مما ذكر أن المغاليط هي التي يثيرها المغالِطون من صعاب المسائل، أو المسائل التي لم تقع ، وذلك ليغالِطوا بها العلماء ليَزِلُّوا فيعمون بها العباد ، ويهيج من ذلك شرٌّ وفتنة وتلبيس على النَّاس.

- الوَقْفَة الثانيَّة:

إن من أعظم الفتن التي يفتن الشَّيطان بها العباد، فتنة التَّزيين ولبس الحقّ بالباطل واتِّباع الهوى، ولقد وقع في هذا الشِّرك الخطير كثير من النَّاس، وما ذلك إلا بسبب التباس الحقّ بالباطل، والجهل بالعلم، ولتعاون شياطين الجنِّ والإنس. كما قال ﷻ: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[الأنعام: ١١٢] . فتعاونوا في وضع هذا التَّلبيس في قوالب من الأقوال مزخرفة، وألفاظ من القول خادعة، وتسمية للأشياء بغير أسمائها، فَضَلَّ بسبب ذلك كثير من النَّاس، والعاقل منهم من وقف حائرًا لا يدري أين وجهة الحقّ فيما يسمع ويرى من التَّناقضات وتبرير المواقف الخاطئة المخالفة للشَّريعة، بسبب استيلاء الهوى على النُّفوس والشَّهوات على القلوب.

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود (١٠/ ٦٤)، ولسان العرب (٧/ ٣٦٤).

(٢) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٣٥٨٦) ، ومسلم (٢٣١).

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب ، صـ ٩٣.

ولما كان من غير المستطاع المجاهرة بردِّ الشَّريعة ورفضها، كان لابدَّ لهم من ليِّ أعناق النُّصوص من آيات وأحاديث ليستدلّ بها المبطلون على المواقف المنحرفة وليست فيها دلالة عليها، ولو أن الذي يقع في الانحراف يعترف بذنبه وخطئه وضعفه في مخالفة الشَّريعة، لكان الأمر أهون، وكذلك لو أنه استدل بدليل في غير محلِّه ولمَّا نُبِّهَ إلى هذا الخطأ في الاستدلال رجع واعترف لكان هذا أيضًا أهون، ولكن المصيبة أن يصِرَّ المسلم الذي حَرّفَ الأدلَّة ولواها ليجد لعمله مَخْرَجًا وشرعيَّة، فيكابر بعد بيان الحقّ له، ويغالط نفسه والمسلمين بصنيعه هذا.

- الوَقْفَة الثالثة:

ويعمل الشَّيطان في تزيينه العمل لأعدائه على محورين أساسيَّيْن، هما : تحبيب الباطل إلى النَّفس، والتَّنفير من الحقّ.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن مكايده أنه يسحر العقل دائمًا حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله، فيزيِّن له الفعل الذي يضرُّه حتى يُخيَّل إليه أنه أنفع الأشياء، ويُنفِّره من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له حتى يُخيَّل له أنه يضرُّه ... فهو الذي سحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة ... وزيَّن لهم عبادة الأصنام، وقطيعة الأرحام، ووأد البنات، ونكاح الأمَّهات، ووعدهم الفوز بالجنَّات، مع الكفر والفسوق والعصيان، وأبرز لهم الشِّرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الربِّ تعالى وعلوِّه على عرشه وتكلُّمه بكتبه فى قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر في قالب التودُّد إلى النَّاس، وحسن الخلق معهم، والعمل بقوله: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة:١٠٥] والإعراض عما جاء به الرَّسول ﷺ في قالب التَّقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم ، والنِّفاق والإدهان

في دين الله في قالب العقل المعيشيِّ الذي يندرج به العبد بين النَّاس »[1].

وقد أورد القرآن كثيرًا من تلك الأمثلة التي زيّن فيها الشَّيطان الكفرَ والباطلَ لأعدائه فاتَّبعوه على ما أراد، فهؤلاء قوم سبأ يعبدون الشَّمس من دون الله، فيقرِّر الحقّ ﷻ أنّ هذه الفِعلة الشَّنعاء إنما هي من تزيين الشَّيطان، يقول ﷻ على لسان الهُدْهُد: ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النَّمل].

والمولى ﷻ يقسم على هذه الحقيقة ليؤكِّد لكل شاكٍّ دور الشَّيطان في ضلال البشر فيقول: ﴿ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النحل].

وقال عن عاد وثمود وقارون وفرعون وهامان حيث كانوا عقلاء متمكِّنين من النَّظر ولكنَّهم لم يفعلوا:

﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت].

وزيَّن للمبطلين الكفر والشِّرك والفواحش ما ظهر منها وما بطن؛ فيرون فيها لذَّتهم ومتعتهم.

قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النَّمل].

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [محمّد].

وقال ﷻ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [البقرة].

---

(١) إغاثة اللَّهفان من مصائد الشَّيطان، لابن القيِّم، (١/ ١١٠- ١١١).

ومع تزيين الباطل، والذي لا ينفكُّ الشَّيطان عن إرساله على أعدائه، يحمل إليهم المحور الآخر من التَّزيين، وهو التَّنفير من الحقّ، فصاحب الهوى وحبّ الدُّنيا بعيد بالضَّرورة عن الحقّ وحبِّه ، بل إن الشَّيطان يعمد في بعض الأحيان إلى بدء رحلة الخطوات مع المؤمنين خاصَّة بالتَّنفير من اتِّباع الحقّ ، ومن إظهار الخير في غير اتِّباعه.

ويعمد الشَّيطان في وساوسه إلى التَّنفير من الحقّ عن طريق تحبيب الإنسان في الدُّنيا ، فهذه عادٌ وثمود يضرب الله لنا المثل في مساكنهم وكيف زيَّن لهم الشَّيطان حبَّها وحبَّ الدُّنيا التي احتوتها؟ يقول ﷻ : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [العنكبوت].

وقال ﷻ : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ [فصِّلت: ٢٥] .

واختلف العلماء في المراد بقوله ﷻ ﴿ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ وذكر الزجَّاج فيه وجهين:

الأول: زيَّنوا لهم ما بين أيديهم من الآخرة أنه لا بعث ولا جنَّة ولا نار، وما خلفهم من أمر الدُّنيا ، فزيَّنوا لهم أن الدُّنيا قديمة، وأنه لا فاعل ولا صانع إلا الطَّبائع والأفلاك .

الثاني: زيَّنوا لهم أعمالهم التي يعملونها ويشاهدونها، وما خلفهم وما يزعمون أنهم يعملونه، وقال ابن زيد : زيَّنوا لهم ما مضى من أعمالهم الخبيثة وما بقي من أعمالهم الخسيسة(١).

وهذا التَّزيين للدُّنيا يقود إلى التَّنفير من الدِّين وأهله، يقول ﷻ: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾. فتحسين الدُّنيا في قلوب

(١) مفاتيح الغيب، الرَّازي (٢٧/ ٥٥٨).

هؤلاء الكفَّار قادهم بالتَّالي إلى بُغض أهل الإيمان والسُّخرية منهم .

وفي هذا السِّياق تأتي هذه القصَّة التي خلاصتها:

أن عابدًا كان يعبد الله ﷻ دهرًا طويلًا ، فبلغه أن أناسًا يعبدون شجرة من دون الله ﷻ ، فغضب لذلك وقصد إلى الشَّجرة ليقطعها ، فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال: ماذا تريد؟ قال : أريد قطع الشَّجرة ، فقال : تترك عبادتك لشأن ما لك فيه، فقال : إن هذا من عبادتي، فقاتله إبليس كي لا يقطعها فصرعه العابد وجلس على صدره ، فقال إبليس: اتركني كي أكلِّمك.

فتركه فقال : ما كلَّفك الله بهذا ، بل إن لله أنبياء لهذا الغرض ولو شاء لبعثهم لقطعها، قال العابد: لابدَّ من قطعها فصرع إبليس مرة أخرى، فعاوده التوسُّل ليكلِّمه، فقال له : أنت رجل فقير لا تجد ما يعولك وتحبُّ أن تتفضَّل على إخوانك ، قال نعم ، قال فارجع عن هذا ولك عليَّ أن أجعل عند رأسك في كلِّ ليلة دينارين ، تنفق على نفسك وعيالك وأصدقائك، فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع الشَّجرة.

فتفكّر العابد فيما قال، وقال: صدق الشَّيخ، لستُ بنبيٍّ فيلزمني قطع هذه الشَّجرة ، ولا أمرني الله أن أقطعها، فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له، ورجع العابد إلى متعبَّده فبات، فلما أصبح وجد دينارين، وكذلك اليوم الثَّاني، وأصبح الثَّالث والذي بعده فلم يجد شيئًا، فغضب وقصد إلى الشَّجرة ليقطعها، فلقيه إبليس ثانية على هيئة الشَّيخ، فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرَّة، ولكن إبليس صرعه وقال: لتنتهينَّ عن هذا الأمر أو لأذبحنَّك فقال له العابد: لقد غلبْتَني فخلِّ عني وأخبرني كيف غلبتُك أولًا وغلبْتَني الآن؟ فقال: لأنك غضبت أول مرَّة لله وكانت نيّتك الآخرة فسخَّرني الله لك، وهذه المرَّة غضبتَ لنفسك وللدُّنيا فصرعتُك "[1] .

ولتتدبَّر قوله ﷻ: ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَاْ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ

(١) إحياء علوم الدِّين، أبو حامد الغزالي، (٤/ ٣٧٧).

﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت].

فقوله: (مستبصرين) أي: كانوا عقلاء ذوي بصائر[1].

ويقول الزَّمخْشَرِيُّ: « وكان أهل مكة يمرُّون عليها في أسفارهم فيبصرونها وكانوا مستبصرين عقلاء متمكِّنين من النَّظر والافتكار، ولكنهم لم يفعلوا أو كانوا متبيِّنين أن العذاب نازل بهم لأن الله ﷻ قد بيَّن لهم على ألسنة الرُّسل عليهم السَّلام ، ولكنهم لجُّوا حتى هلكوا »[2].

فهذان قومان من أكبر وأشهر الأقوام البائدة، يمنحهم الله ﷻ العقل وسداد النَّظر، فيأتيهم الشَّيطان من هذا الباب، باب العقل، فيُغريهم بعقولهم فيلجِّوا ويجادلوا فيهلكوا، وحقيقةً كم من علماء ومفكِّرين وأدباء سقطوا في مراتع عقولهم لما تركوا الاحتكام إلى شرع الله ، فالشَّيطان يأتي لمثل هؤلاء من باب تزيين قوة العقل، ويدعو إلى الافتتان بها، وما تلك الأفكار الباطلة التي انتشرت في عالمنا اليوم، أمثال الشُّيوعيَّة، والوجوديَّة، وتحرير المرأة والرأسماليَّة وغيرها إلا مثال حيٌّ على فتنة العقل أهلَه بتزيين الشَّيطان.

*** أدوات التَّزيين :**

لا يكتفي الشَّيطان في تزيينه الباطل لأعدائه بمجرَّد تحسين الأمر في أعينهم وعقولهم، أو تنفيرهم مما يخالفه وهو الحقّ، بل يأتي على ذلك بأدوات ومؤكِّدات ومحفِّزات يرفع بهنَّ الشكَّ عن قلوب الشاكّين، ويزيل بهنَّ الرَّيب عن عقول المتردِّدين في سعيه إلى قلب الحقائق عندهم، تلك الأدوات سلاح لصيق بإبليس وجنده مُذ بدأت رحلة الغواية والإغواء بينه وبين جند الرَّحمن،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبيّ (١٣/ ٣٤٤).

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التَّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التَّأويل، للزَّمخشريّ ، (٣/ ٤٥٤).

ومن هذه الأدوات :

أولًا : الكَذِب :

ذكرنا أن التَّزيين هو تحسين الأمر في النَّفس ، وهذا التَّحسين يأتي إمَّا لتشويه صورة هذا الأمر في نفس السَّامع فيعيدها المزيّنون إلى أصلها ، وهذا مختصٌّ بالدُّعاة الصَّادقين ، وإما أن يقلب الصورة الحقيقيَّة للأمر على خلافها وهذا هو عمل الشَّيطان ، وهذا العمل قائم بالدَّرجة الأولى على الكذب ، فلا يتأتَّى تزيين الشَّيطان بلا كذب ، فهذه الأداة هي ديدن الشَّيطان في كل تزيين يقوم به ، وخُذْ على ذلك مثالًا قرآنيًّا. يقول ﷻ في حقِّ مشركي بدر : ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ** ﴾ . فهذا تزيين فحواه كذبٌ ومدخله إليهم العجَب والبَطَر الذي ملأ نفوسهم ، ألم تر أن الله وصفهم في الآية التي قبلها فقال ﷻ: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾** ﴾ [الأنفال] .

فلمّا رأى إبليس منهم عجبهم بأنفسهم وبطرهم أتاهم من هذا الباب فزيّن لهم قوَّتهم ، وأكذبهم النَّصيحة بوسواسه في صدورهم "فحسّن لهم – لعنه الله – ما جاءوا له وما همّوا به وأطمعهم أنه لا غالب لهم اليوم من النَّاس"، وأينما وقعت عينك على تزيين للشَّيطان في كتاب الله ﷻ وجدت رائده الكذب والتَّدليس، وأول ذلك الكذب تزيين الشَّيطان الأكل من الشَّجرة لآدم وزوجه، فقد أخبرهما أنهما ما نُهيا عن الأكل من هذه الشَّجرة إلا خوفًا من أن يكونا ملكَين ، أو من أن يخلَّدا ﴿ **وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾** ﴾ [الأعراف].

ثانيًا : الحلف والوعد الكاذب :

وبعد أن يزيِّن الشَّيطان الباطلَ في قلب العبد، وينفِّره من الحقّ، قد لا يستقرُّ هذا التَّزيين في قلبه تمام الاستقرار، فيجد في نفسه شيئًا من هذا

التَّزيين، فيلجأ الشَّيطان في مثل هذه الحالات إلى أداة أخرى من أدوات التَّزيين يُزيل بها الرَّيْب عن هذا القلب، تلك الأداة هي الوعد الكاذب والحلف له بالله .

وأول ما وقع من ذلك هو الحلف والإقسام بالله لآدم وزوجه على صدق ما زيّن لهما، وإنما أتى بالقسم هنا لمعرفته بحال آدم وزوجه من الثِّقة الكاملة بالله فأتاهما من هذا الباب يقول ﷻ: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الأعراف]. "{وَقَاسَمَهُمَا} أَيْ: حَلَفَ لَهُمَا بِالله:{إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ} فَإِنِّي مِنْ قَبْلكما هَاهُنَا، وَأَعْلَمُ بِهَذَا الْمَكَانِ، وَهَذَا مِنْ بَابِ الْمُفَاعَلَةِ، وَالْمُرَادُ أَحَدُ الطَّرَفَيْنِ، أَيْ: حَلَفَ لَهُمَا بِالله عَلَى ذَلِكَ حَتَّى خَدَعَهُمَا، وَقَدْ يُخْدَعُ الْمُؤْمِنُ بِالله، فَقَالَ: إِنِّي خُلقت قَبْلَكُمَا، وَأَنَا أَعْلَمُ مِنْكُمَا، فَاتَّبعَانِي أُرْشِدْكُمَا. وَكَانَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَقُولُ: "مَنْ خَادَعَنَا بِالله خُدِعنا لَهُ "(١).

وقد فشا هذا الأسلوب الخبيث من أساليب التَّزيين والإغواء بين شياطين الإنس، فاتَّخذوا الحلف بالله ديدنهم في سبيل الوصول إلى ما يريدون من إغواء غيرهم وإيقاعهم في الضَّلالة، وفي سبيل تأكيد باطلهم لغيرهم، فهؤلاء شياطين الإنس من الكفَّار يكثرون من الإقسام بالله على تأكيد قضايا الباطل التي يؤمنون بها، كما قال ﷻ : ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [النَّحل].

أما الوعد الكاذب فسلاح الشَّيطان في أهل الدُّنيا ومحبّيها ، وهذا الوعد ليس كاذبًا فقط، بل هو غَرور وخادع لمن يقع عليه، وقد أخبر الحقّ ﷻ عن إبليس أنه سوف يَعِدُ النَّاس أجمعين بالكذب والخداع، وأخبرهم بكُنْه تلك الوعود، يقول ﷻ في سياق خطابه لإبليس ﴿ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

(١) تفسير القرآن العظيم ، لابن كثير (٣/ ٣٤٥).

﴿إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء].

وقد سبق لنا أن ذكرنا كذب الشَّيطان في تزيينه للمشركين الخروجَ يوم بدر لملاقاة المؤمنين، وقد استعان الشَّيطان في هذا الكذب والتَّزيين بوعدٍ كاذبٍ أطلقه للمشركين حيث قال لهم: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾[الأنفال: ٤٨].

" قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ سَارَ إِبْلِيسُ بِرَايَتِهِ وَجُنُودِهِ مَعَ الْمُشْرِكِينَ، وَأَلْقَى فِي قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ: أَنَّ أَحَدًا لَنْ يَغْلِبَكُمْ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ. فَلَمَّا الْتَقَوْا، وَنَظَرَ الشَّيْطَانُ إِلَى إِمْدَادِ الْمَلَائِكَةِ، {نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ} قَالَ: رَجَعَ مُدْبِرًا، وَقَالَ: {إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ} "[1].

وفي نهاية الأمر، وبعد أن يُغرِق الشَّيطان أتباعه في تلك الوعود الكاذبة فيقودهم بها إلى جهنَّم، يفصح لهم عن الحقيقة المرَّة والتي كثيرًا ما حذَّرهم القرآن الكريم منها ، فيقف الشَّيطان في النَّاس يوم القيامة خطيبًا يخبرهم بأنه وعدهم وعودًا كثيرة لا حصر لها، وما صدقهم فيها من وعد ، وإنما الصِّدق كله كان عند الله ﷻ ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

*** أسباب التباس الحقّ بالباطل :**

إن الانحراف عن الحقّ والوقوع في الباطل لا تعدو أسبابه الفتن التَّالية:

١- فتنة الشُّبهات.

٢- فتنة الشَّهوات.

٣- فتنة الجمع بين الشُّبهة والشَّهوة ولبس الحقّ بالباطل.

وكل انحراف أو ضلال أو خطأ سواء أكان صغيرًا أو كبيرًا لا يخرج في

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٤/ ٧٣).

دوافعه عن الأسباب الثَّلاثة السَّابقة.

فإذا وقع العبد في مخالفة شرعيَّة، فإمَّا أن يكون السَّبب في هذه المخالفة هو الجهل بها وعدم العلم بحرمتها، أو اشتبه الأمر عليه فحسبها مكروهة فقط، فهذا الخطأ سببه الشُّبهة النَّاتجة من قلَّة العلم وضعف البصيرة.

وأما إذا كان لدى من وقع في المخالفة علم وبصيرة في دين الله ﷻ بأنها محرَّمة ومخالفة للشَّرع ومع ذلك وقع فيها عمدًا، فإن الدافع لهذه المخالفة إنما هو الشَّهوة، وضعف النَّفس، ومثل هذا يقِرُّ ويعترف بمخالفته ومجانبته للصَّواب كما يعترف بذنبه وتقصيره.

أما إذا وقع في المخالفة عن شهوة وضعف ثم لم يعترف بذنبه وتقصيره، وإنما راح يبحث عن شبهة شرعيَّة أو تفسير خاطئ أو تأويل متعسِّف للأدلة ليبرِّر بها خطأه ويبرِّر بها ضعفه وشهوته مع علمه بخطأ تصرُّفه هذا في قرارة نفسه، فهذا هو الهوى، وهذه هي المغالطة، وهذا هو لبس الحقّ بالباطل، وهو أشنع أنواع الانحراف لأنه مكر وتحايل على شرع الله وخداع للنَّاس.

إن أشدَّ وأشرَّ هذه الفتن من جمع بين الشُّبهة والشَّهوة وتحايل على شرع الله بأن غطَّى مخالفته وانحرافه بشبهة شرعيَّة، وهو يعلم أنه متحايل ومخادع، ومثل هؤلاء الملبِّسين عقوبتهم عند الله ﷻ أشدُّ من الذين يقعون في المخالفات الشَّرعيَّة ولكنهم يعترفون بتقصيرهم وذنوبهم، ولا يكابرون، ولا يبرِّرون؛ ولهذا حذَّر النَّبيُّ ﷺ أمَّته من ارتكاب الحِيَل فقال: [**لَا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَ الْيَهُودُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ**][1].

وهذه هي حقيقة لبس الحقّ بالباطل وحقيقة المغالطة؛ لأن الدَّافع الحقّيقيَّ للانحراف هنا هو الهوى والشَّهوة وحبُّ الدُّنيا، ولكن عِوَضًا عن أن يعترف بضعفه هذا وشهوته، ويعترف بذنوبه في مخالفته للشَّريعة فإنه يستدِلُّ لشهوته

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير(١/ ٢٩٣)، وقال ابن كثير: "وَهَذَا إِسْنَادٌ جَيِّدٌ، وَأَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُسْلِمٍ هَذَا وَثَّقَهُ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ، وَبَاقِي رِجَالِهِ مَشْهُورُونَ عَلَى شَرْطِ الصَّحِيحِ" عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

هذه بشبهة شرعيَّة يعلم هو في قرارة نفسه أنها لا تصلح للاستدلال، لكن لابدَّ من غطاء يغطي به هذا الضَّعف والهوى.

*** وسائل تلبيس الحقّ بالباطل :**

نحمد الله الذي أنزل علينا دينًا قيمًا، ورضيه لنا وقال: ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾[المائدة: ٣]. فهو أكمل الأديان وأفضلها وأعلاها وأجلُّها ﴿ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ** ﴾[النِّساء: ١٢٥]، وأمرنا الله أن نتمسَّك به، وأن لا نموت إلا ونحن ثابتون عليه، ﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾** ﴾ [آل عمران]، وأخبرنا أنه لا يقبل غيره، ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾** ﴾ [آل عمران]، وهذا الدِّين له نصوص من الكتاب والسنَّة، والوحي المبين، ولقد حاول أعداء الإسلام الطَّعن فيه والتَّشكيك ولكن بارت مؤامرتهم وخابت جهودهم، وبقي دين الإسلام منصورًا، ولكن لا زالت محاولاتهم في الطَّعن والتَّشكيك ومحاولة التَّرويج بالباطل، ومن ذلك أنهم علموا أنه لا يروج شيء من المكر إلا باستعمال شيء من الشَّرع، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا يشتبه على النَّاس الباطل المحض، بل لا بد أن يشاب بشيء من الحقّ"(١).

وحيث إن أحكام الإسلام وهذه الشَّريعة، أحكام عظيمة فهي أمانة في أعناقنا وعلينا واجب الدِّفاع عنها، وهذا يحتاج إلى علم وفقه، وجهد وثبات، وقوة وشجاعة، وجرأة في الحقّ وبصيرة به، ولابدَّ أن يكون للبدعة إذا أريد التَّرويج لها شيء مما تُطلَى به حتى تنطلِي.

ولذلك يقول الشَّاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لا تجد مبتدِعًا ممن ينتسب إلى الملَّة إلا

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٨/ ٣٧).

وهو يستشهد على بدعته بدليل شرعيٍّ، فينزله على ما وافق عقله وشهوته »[1].

فنحن الآن لا نخشى ـ مثلًا ـ من أناس يسبُّون الدِّين؛ لأن هذا واضح، لكن الخشية إذا استُعمِلَتْ نصوص من الدِّين في التَّلبيس، فتحتاج القضيَّة إلى فهم وعلم؛ ولذلك لما خرج الخارجون على (عليٍّ) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ماذا رفعوا ؟

لقد رفعوا شعار "لا حكم إلا لله"، وهذه الكلمة صحيحة في الظَّاهر، بلا شكٍّ، لكنهم استعملوها بإرادة وبقصد باطلين فقال (علي) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كلمته المشهورة : « **كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ، إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ وَصَفَ نَاسًا إِنِّي لأَعْرِفُ صِفَتَهُمْ فِي هَؤُلاَءِ [يَقُولُونَ الحقّ بِأَلْسِنَتِهِمْ لاَ يَجُوزُ هَذَا مِنْهُمْ - وَأَشَارَ إِلَى حَلْقِهِ -...] »**[2].

ولذلك لما قال الله عن أهل النِّفاق ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾[المنافقون:٤]، كان لا بد من التمعُّن والحذر لأن النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لنا: [**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي كُلُّ مُنَافِقٍ عَلِيمِ اللِّسَانِ**][3]، والقلم أحد اللِّسانين، فسواء كان متكلِّمًا أو كان كاتبًا، إذ ليس كل من استعمل نصًّا من كتاب أو سنَّة فهو محِقٌّ في دعواه، لأنه قد يستعمل حديثًا باطلًا موضوعًا، وقد يستعمل حديثًا صحيحًا لكنَّه يفسِّره بغير معناه الشَّرعيِّ، وقد يستعمله وهو منسوخ، وقد يستعمله وهو مخصَّص مثلًا، أو من خصوصيَّات النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيريد تعميمه، أو يكون خاصًّا فيريد أن يجعله عامًّا، أو يكون مقيَّدًا فيريد أن يجعله مطلقًا.

وقد صارت عملية التَّضليل الآن عمليَّة احترافيَّة ، وصدق النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: [**دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا**] .. قال في وصفهم [**هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا ، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا**][4]، فهم في

---

(١) الاعتصام، للشاطبيِّ (١/ ١٣٤).

(٢) أخرجه مسلم برقم (١٠٦٦).

(٣) أخرجه أحمد في المسند برقم (١٤٣) ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٣٩).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٣٦٠٦) ، ومسلم برقم (١٨٧٤) .

الظَّاهر مثلُنا أو معنا، وفي الباطن مخالفون لنا في أمورهم "يتكلَّمون بألسنتنا" أي بالعربيَّة، أو بالمواعظ والحكم، أو بما قال الله وقال رسوله، وما في قلوبهم شيء من الخير[1]، ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١]. فليس الطَّعن في الدِّين الآن بأن يقال الدِّين خطأ، أو الدِّين كذب، أو الدِّين ضلال، لا، هذه مرحلة انتهت، وأعداء الإسلام يعرفون جيدًا أن هذا كلام لا يُقبل، وإنما للتَّلبيس وسائل كثيرة ومتنوعة فمن ذلك:

١) التَّأويل واتِّباع المتشابه:

التَّأويل الفاسد الذي لم يدلَّ عليه دليل يصرفه عن المعنى الظَّاهر الذي هو أشبه بتحريف الكلم ، والغالب أن الذي يدفع إليه هو الجهل والهوى وفي ذلك يقول الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « فَأَصْلُ خَرَابِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَمْ يُرِدْهُ الله وَرَسُولُهُ بِكَلَامِهِ وَلَا دَلَّ عَلَيْهِ أَنَّهُ مُرَادُهُ، وَهَلْ اخْتَلَفَتْ الْأُمَمُ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ؟ وَهَلْ وَقَعَتْ فِي الْأُمَّةِ فِتْنَةٌ كَبِيرَةٌ أَوْ صَغِيرَةٌ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ؟ فَمِنْ بَابِهِ دَخَلَ إِلَيْهَا، وَهَلْ أُرِيقَتْ دِمَاءُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْفِتَنِ إِلَّا بِالتَّأْوِيلِ؟ »[2] .

ولنقف أمام قوله ﷻ في اليهود: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾[آل عمران].

يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وآفة رجال الدِّين حين يفسدون أن يصبحوا أداة طيِّعة لتزييف الحقائق باسم أنهم رجال الدِّين، وهذه الحال التي يذكرها القرآن عن هذا الفريق من أهل الكتاب نعرفها نحن جيدًا في زماننا هذا فهم كانوا يؤوِّلون نصوص كتابهم ، ويلوونها ليًّا ، ليصلوا منها إلى مقرَّرات معيَّنة

---

(١) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٤ / ١٦٥) .

(٢) إعلام الموقِّعين، لابن القيِّم (٤/ ١٩٢) .

يزعمون أنها مدلول هذه النُّصوص، وأنها تمثِّل ما أراده الله منها ، بينما هذه المقرَّرات تصادم حقيقة دين الله في أساسها، معتمدين على أن كثرة السَّامعين لا تستطيع التَّفرقة بين حقيقة الدِّين ومدلولات هذه النُّصوص الحقّيقيَّة، وبين تلك المقرَّرات المفتعلة المكذوبة التي يُلجئون إليها النُّصوص إلجاء »[1].

*** معنى المتشابه :**

المتشابه : هو ذلك الباطل الذي أشبه الحقّ لدقة الفرق بينه وبين الحقّ بحيث يُشْكِل على بعض النَّاس ، ولقد اعتنى السَّلف الصَّالح رحمهم الله بقضيَّة المتشابه، وحرصوا على إظهارها وإبانتها وإيضاحها ، فما زالوا منذ أن أظهر أهل الباطل باطلهم وهم يُعِدُّون الخطب ويؤلِّفون الكتب في بيان ما اشتبه على أهل الباطل أو ما شبَّهوه على غيرهم من النَّاس ، وربُّنا ﷻ وصف أهل الباطل بأن ذلك حالهم وهذا شأنهم أنهم يتَّجهون إلى الأمور التي تشتبه على النَّاس بحيث لا يعرفون ما فيها حقًّا أو باطلًا لدقَّة ذلك الفرق بين ذلك الحقّ وذلك الباطل، كما قال ﷻ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران: ٧].

إذاً المقصود الأساسيُّ من اتِّباع الأمور المتشابهة هي حصول الفتنة في باب العلم بأن تكون مفاهيم المسلمين حول دينهم مغلوطة ، وفي باب العمل بأن تكون أعمال المسلمين أعمالًا غير موافقة للشَّريعة؛ ولذا فهم يأتون ببعض الآيات القرآنيَّة أو ببعض الأحاديث النبويَّة ثم يظهرونها للنَّاس وتكون هذه الأحاديث ليست واضحة المعنى ولا ظاهرة المراد، فيأتون وهم يعلمون أن هذه النُّصوص من الكتاب والسنَّة دالَّة على الحقّ قطعًا؛ ولكن نظرًا لأن هناك اشتباهًا فيها من جهة المعنى لاحتمالها ما يريدونه، فيبرزونها على أساس أنها تدلُّ على المعنى الذي يريدون من الباطل ، قصدًا لأن يقولوا للمسلمين: إن

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (١/ ٤١٨) .

هذا الذي تدَّعون باطل، وما هو بباطل، وبالتَّالي يؤثِّرون على ضعفاء العقول من المسلمين، فيتَّبعون ما هم عليه من الباطل .

وهذا الطَّريق من أعظم طرق الباطل وأخطرها ؛ ولذا نجد كثيرًا من المستشرقين ومن أعداء الإسلام من الشَّرق والغرب يسعون في إدراج هذه الشُّبَه وإظهارها للنَّاس ، ويدلُّكم على خطر التعرُّض للمتشابه ما صنعه الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع الحارث المحاسبيِّ ـ والحارث المحاسبيُّ عالم من علماء الأمَّة ـ لكن كانت طريقته أنه يأتي بتلك المتشابهات أو تلك الشُّبَه التي يلقيها أهل الباطل، فيعرضها في المجالس العامَّة بين النَّاس، ويأخذ في الردِّ عليها ، ففعل هذا الرجل مع أنه طيِّب وخيِّر وكان قصده حسنًا في الدِّين، إلا أن الإمام أحمد أنكر عليه فعله هذا، لماذا؟ لأن حكاية الشُّبهات في المجتمعات العامَّة لها أضرار، ومن أعظم أضرارها أن يكون عرض الشُّبهة قويًّا حسنًا جميلًا، ويكون الجواب عليها ضعيفًا متهافتًا أو غير مفهوم، وقد يردُّ عليها بردٍّ قوي في بعض الأحيان لكنَّ الموجودين بين يدي ذلك الرجل العالم ليسوا على المستوى الذي يستطيعون به أن يفهموا معنى تلك الرُّدود، والذي يحصل أن الشُّبهة تستقِرُّ في النفوس، وهذه الرُّدود لا تنفع وتذهب، فيكون هذا الرجل قد ساعد أهل الباطل في نشر تلك الشُّبهات بين المسلمين، ومعتمد الشُّبهات في الأصل هو على المتشابه نفسه.

ومن الأمثلة على هذا شبهة بعض النَّاس في قطع اليد عندما قال بعضهم لو أن إنساناً قطع يد إنسان خطأً قلنا ادفع نصف الدِّية، فإذا كانت الدِّية مائة ألف نقول ادفع خمسين ألف، لكنها عندما تسرق نقطعها في ربع دينار.

فجاء بعض أهل الباطل فقال: ما لليد التي قيمتها كذا وكذا تقطعونها في ربع دينار ، لماذا لا تقطعونها في خمسين ألف ؟ فهذه شبهة تورَد من أجل إبطال حدِّ السَّرِقة .

فَرَدَّ عليهم العلماء فقالوا: إن هذه اليد لما كانت عزيزة كريمة كانت غالية، لكن لما صارت دنيئة صارت لا قيمة لها، فلذلك لو قُطعت بسبب وقوع جرم عليها

قلنا ادفع نصف دية، ولو سرقت هانت فصارت لا تساوي أكثر من ربع دينار .

فالحقّ في الأولى أعلاها، والباطل في الثَّانية أدناها وأرخَصها ، فتجد أهل الباطل يقبلون مثل هذه الشُّبهات قصدًا لصرف المسلمين عن دينهم، ولتشكيكهم فيما هم عليه من الحقّ المنزَّل من عند الله ﷻ .

وهناك قصص وحوادث لاسيَّما لأفضل النَّاس بعد النَّبيّ ﷺ ، يتبيَّن لنا من خلالها مدى تأثير الشُّبَه على ابن آدم، حتى تكون عبرة وعظة لنا، نعالج بها أمراض قلوبنا من وسوسة الشَّيطان كما عالجها أولئك الأخيار الذين لم يسلموا من شبهاته، فكيف بمن بعدهم .

فعن أبي زُمَيْل، قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ فَقُلْتُ: مَا شَيْءٌ أَجِدُهُ فِي صَدْرِي؟ قَالَ: مَا هُوَ؟ قُلْتُ: وَالله مَا أَتَكَلَّمُ بِهِ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «أَشَيْءٌ مِنْ شَكٍّ؟» قَالَ: وَضَحِكَ، قَالَ: «مَا نَجَا مِنْ ذَلِكَ أَحَدٌ» ، قَالَ: حَتَّى أَنْزَلَ الله ﷻ ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [يونس]. قَالَ: فَقَالَ لِي: «إِذَا وَجَدْتَ فِي نَفْسِكَ شَيْئًا فَقُلْ» ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [الحديد] (١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلُوهُ إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ]. قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ] (٢).

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ، يُعَرِّضُ بِالشَّيْءِ، لَأَنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥١١٠) وصحَّحه الألباني في صحيح التَّرغيب والتَّرهيب برقم (١٦١٤) .

(٢) أخرجه مسلم برقم (٣٥٧).

يَتَكَلَّمَ بِهِ، فَقَالَ: [الله أَكْبَرُ، الله أَكْبَرُ، الله أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لله الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلَى الْوَسْوَسَةِ][1].

والأثر الآتي يدلُّنا على مدى حرص الشَّيطان على إلقاء الشُّبهات لابن آدم وعلى عظيم خطرها على إيمان المسلم:

فَعَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ، فَدَخَلَ رَجُلٌ يُصَلِّي، فَقَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ قِرَاءَةً سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ دَخَلْنَا جَمِيعًا عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: إِنَّ هَذَا قَرَأَ قِرَاءَةً أَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ، وَدَخَلَ آخَرُ فَقَرَأَ سِوَى قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهُمَا رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَرَآ، فَحَسَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَأْنَهُمَا، فَسَقَطَ فِي نَفْسِي مِنَ التَّكْذِيبِ، وَلَا إِذْ كُنْتُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا قَدْ غَشِيَنِي، ضَرَبَ فِي صَدْرِي، فَفِضْتُ عَرَقًا وَكَأَنَّمَا أَنْظُرُ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ فَرَقًا، فَقَالَ لِي: [يَا أُبَيُّ أُرْسِلَ إِلَيَّ أَنِ اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّالِثَةَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا، فَقُلْتُ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ][2].

وما نراه اليوم من وضع العراقيل في طريق الدَّعوة والصَّدِّ عن سبيل الله وإثارة الشُّبهات والشُّكوك حوله، إنما هو امتداد لمكايد الشَّيطان وأعوانه التي يمنعون النَّاس بها عن الخير وأسباب الخير، كما قال ﷻ في شأن المنافقين: ﴿ اتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ﴾[المنافقون:٢]، ولكنَّ الله ﷻ بفضله وقوته يُحِقُّ الحقّ ويبطل كيد الشَّيطان وأعوانه ، ويصون دعوة أنبيائه

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٥١١٢)، وصحَّحه الألباني في تحقيق كتاب الإيمان لابن تيمية (١/ ١٠٢).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٢٠).

ويبيِّن لهم أصولها ويُزيل كل شبهة.

٢) كِتمان الحقّ وإخفاؤه:

وهو تحريف الكلم عن مواضعه وتغطية الحقّ بالباطل، قال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [البقرة].

وقال ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ ﴾ [البقرة].

يقول الشَّيخ رشيد رضا في تفسيرها: « وَعَلَى هَذَا تَكُونُ الْآيَاتُ جَارِيَةً عَلَى الرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ يُحَرِّمُونَ عَلَى النَّاسِ مَا لَمْ يُحَرِّمِ اللهُ، وَيُشَرِّعُونَ لَهُمْ مَا لَمْ يُشَرِّعْهُ مِنْ حَيْثُ يَكْتُمُونَ مَا شَرَعَهُ بِالتَّأْوِيلِ أَوِ التَّرْكِ، فَيَدْخُلُ فِيهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُمْ فِي شَرْعِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ وَإِظْهَارِ خِلَافِهِ، سَوَاءٌ كَانَ ذَلِكَ فِي أَمْرِ الْعَقَائِدِ كَكِتْمَانِ الْيَهُودِ أَوْصَافَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوِ الْأَكْلِ وَالتَّقَشُّفِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي كَانُوا يَكْتُمُونَهَا إِذَا كَانَ لَهُمْ مَنْفَعَةٌ فِي ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [الأنعام: ٩١]، وَفِي حُكْمِهِمْ كُلُّ مَنْ يُبْدِي بَعْضَ الْعِلْمِ وَيَكْتُمُ بَعْضَهُ لِمَنْفَعَتِهِ لَا لِإِظْهَارِ الحقّ وَتَأْيِيدِهِ »[1].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وهذا قد يبتلَى به طوائف من المنتسبين إلى العلم، فإنهم تارة يكتمون العلم بخلًا به، وكراهة لأن ينال غيرهم من الفضل ما نالوه، وتارة اعتياضًا عنه برئاسة أو مال، فيخاف من إظهاره انتقاص رئاسته أو نقص ماله، وتارة يكون قد خالف غيره في مسألة، أو اعترى إلى طائفة قد خولفت في

(١) تفسير المنار، محمد رشيد (٢ / ٨٢).

مسألة، فيكتم من العلم ما فيه حجَّة لمخالفه وإن لم يتيقَّن أن مخالفه مبطل.

ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي وغيره: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم »[1].

« وقال ﷻ في صفة المغضوب عليهم: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النِّساء:٤٦]، ووصفهم بأنهم ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧٨].

والتَّحريف قد فُسِّر بتحريف التَّنزيل، وبتحريف التَّأويل.

فأما تحريف التَّأويل فكثير جدًّا، وقد ابتليت به طوائف من هذه الأمَّة، وأما تحريف التَّنزيل فقد وقع فيه كثير من النَّاس، يحرِّفون ألفاظ الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويروون الحديث بروايات منكَرة.

وإن كان الجهابذة يدفعون ذلك، وربما يطاول بعضهم إلى تحريف التَّنزيل، وإن لم يمكنه ذلك، كما قرأ بعضهم (وَكَلَّمَ اللهَ مُوسَى تَكْلِيمًا).

وأمّا لَيُّ الألسنة بما يُظَن أنه من عند الله فكوضع الوضَّاعين الأحاديث على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو إقامة ما يُظنُّ أنه حجَّة في الدِّين، وليس بحجَّة، وهذا الضرب من أنواع أخلاق اليهود، وذمُّها كثير لمن تدبَّره في كتاب الله وسنَّة رسوله، ثم نظر بنور الإيمان إلى ما وقع في الأمَّة من الأحداث »[2].

وقد يقول قائل: ألا يجوز كتمان العلم بل قد يجب أحيانًا عند خوف الفتنة من الجهر به سواء أكان على النَّفس أو على النَّاس؟ والجواب: أن في ذلك تفصيلًا كما يلي:

بداية فإن حديثنا ليس عن كتمان العلم، وإنما هو عن كتمان الحقّ الذي يجب أن يقال، وبينهما اختلاف، وذلك أن العلم أنواع: فمنه ما هو واجب القول به وتعليمه النَّاس، مثل علم الصَّلاة ونحوها، ومنه ما هو مستحبٌّ،

---

(١) اقتضاء الصِّراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم (١/ ٨٥).

(٢) المصدر السَّابق (١/ ٨٧- ٨٨).

ومنه ما يجوز قوله لأناس دون أناس حسب عقولهم وأفهاهم، أما قول الحقّ الواجب فأرى أنه من العلم الواجب إيصاله للنَّاس، ولا يجوز كتمه لأن في كتمه مفسدة تنافي مقاصد الشَّرع أو بعضها ، وفي إخفائه فتنة للنَّاس وليس العكس، فإذا جاز كتمان العلم أو وجب في ضوء قواعد الشَّريعة المعتبرة فإنا والحالة هذه نقول : إن الحقّ في هذا هو كتمان العلم ، وإن الجهر بالعلم مع معرفتنا بالمفسدة المترتِّبة عليه هو الباطل والفتنة.

وهذا ـ والله أعلم ـ هو الذي عناه الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في "الموافقات" حيث قال : « وَمِنْ هَذَا يُعْلَمُ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ مَا يُعْلَمُ مِمَّا هُوَ حَقٌّ يُطْلَبُ نَشْرُهُ وَإِنْ كَانَ مِنْ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ وَمِمَّا يُفِيدُ عِلْمًا بِالْأَحْكَامِ، بَلْ ذَلِكَ يَنْقَسِمُ، فَمِنْهُ مَا هُوَ مَطْلُوبُ النَّشْرِ، وَهُوَ غَالِبُ عِلْمِ الشَّرِيعَةِ، وَمِنْهُ مَا لَا يُطْلَبُ نَشْرُهُ بِإِطْلَاقٍ، أَوْ لَا يُطْلَبُ نَشْرُهُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالٍ أَوْ وَقْتٍ أَوْ شَخْصٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ تَعْيِينُ هَذِهِ الْفِرَقِ، فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ حَقًّا فَقَدْ يُثِيرُ فِتْنَةً، كَمَا تَبَيَّنَ تَقْرِيرُهُ فَيَكُونُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ مَمْنُوعًا بَتَّهُ.

وَمِنْ ذَلِكَ عِلْمُ الْمُتَشَابِهَاتِ وَالْكَلَامُ فِيهَا، فَإِنَّ الله ذمَّ من اتَّبعها ، فإذا ذُكِرَتْ وَعُرِضَتْ لِلْكَلَامِ فِيهَا، فَرُبَّمَا أَدَّى ذَلِكَ إِلَى مَا هُوَ مُسْتَغْنًى عَنْهُ »[1].

٣) تحريف الأدلَّة عن مواضعها :

وهذه الطَّريقة من طرق التَّلبيس هي ثمرة من ثمرات الطَّريقتين السَّابقتين، إذ لابدَّ لمحرِّف الأدلَّة من كتمان الحقّ ، ولابدَّ لمتَّبع المتشابه من التَّأويل الفاسد الذي يؤدِّي إلى صرف الأدلَّة عن ما أراد الله بها، وأراده رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن ثَمَّ وضعها في غير موضعها ، والتَّحريف قد يكون لفظيًّا كما فعلت اليهود في التَّوراة ، وقد يكون تحريفًا للمعنى.

وهذا ما أشار إليه الشَّاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: « وَمِنْهَا: تَحْرِيفُ الْأَدِلَّةِ عَنْ

(١) الموافقات، أبو إسحاق الشَّاطبيّ (٥ / ١٦٧-١٦٨) .

مَوَاضِعِهَا: بِأَنْ يَرِدَ الدَّلِيلُ عَلَى مَنَاطٍ، فَيُصْرَفُ عَنْ ذَلِكَ الْمَنَاطِ إِلَى أَمْرٍ آخَرَ؛ مُوهِمًا أَنَّ الْمَنَاطَيْنِ وَاحِدٌ، وَهُوَ مِنْ خَفِيَّاتِ تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَالْعِيَاذُ بِالله.

وَيَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ أَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِالْإِسْلَامِ، وَبِأَنَّهُ يَذُمُّ تَحْرِيفَ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ لَا يَلْجَأُ إِلَيْهِ صُرَاحًا؛ إِلَّا مَعَ اشْتِبَاهٍ يَعْرِضُ لَهُ، أَوْ جَهْلٍ يَصُدُّهُ عَنِ الحقّ، مَعَ هَوَىً يُعْمِيهِ عَنْ أَخْذِ الدَّلِيلِ مَأْخَذَهُ، فَيَكُونُ بِذَلِكَ السَّبَبِ مُبْتَدِعًا.

وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الدَّلِيلَ الشَّرعيَّ إِذَا اقْتَضَى أَمْرًا فِي الْجُمْلَةِ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْعِبَادَاتِ مَثَلًا، فَأَتَى بِهِ الْمُكَلَّفُ فِي الْجُمْلَةِ أَيْضًا، كَذِكْرِ الله وَالدُّعَاءِ وَالنَّوَافِلِ الْمُسْتَحَبَّاتِ وَمَا أَشْبَهَهَا مِمَّا يُعْلَمُ مِنَ الشَّارِعِ فِيهَا التَّوْسِعَةُ؛ كَانَ الدَّلِيلُ عَاضِدًا لِعِلْمِهِ مِنْ جِهَتَيْنِ: مِنْ جِهَةِ مَعْنَاهُ، وَمِنْ جِهَةِ عَمَلِ السَّلَفِ الصَّالِحِ بِهِ.

فَإِنْ أَتَى الْمُكَلَّفُ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ بِكَيْفِيَّةٍ مَخْصُوصَةٍ، أَوْ زَمَانٍ مَخْصُوصٍ أَوْ مَكَانٍ مَخْصُوصٍ أَوْ مُقَارِنًا لِعِبَادَةٍ مَخْصُوصَةٍ، وَالْتَزَمَ ذَلِكَ بِحَيْثُ صَارَ مُتَخَيَّلًا أَنَّ الْكَيْفِيَّةَ، أَوِ الزَّمَانَ أَوِ الْمَكَانَ مَقْصُودٌ شَرْعًا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَدُلَّ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ؛ كَانَ الدَّلِيلُ بِمَعْزِلٍ عَنْ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْمُسْتَدَلِّ عَلَيْهِ »[1].

*** أمثلة على تحريف الأدلَّة عن مواضعها :**

أولًا : قولهم بصحَّة أديان الكفر :

وذلك باستدلالهم الخاطئ من قوله ﷻ: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦ ﴾ [الكافرون].

فقد احتجَّ البعض بهذه الآية على أن الملل الأخرى صحيحة (اليهوديَّة، النصرانيَّة، البوذيَّة، الهندوسيَّة، السِّيخيَّة) فهل تعدُّ هذه الآية إقرارًا على الشِّرك إطلاقًا، أو أن يقال إن أهل هذه الملل كلَّهم مؤمنون ؟

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقًا على هذه الآية: « ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريرًا لهم أو إقرارًا على دينهم أبدًا، بل لم يزل رسول الله

(١) الاعتصام ، أبو إسحاق الشَّاطبيّ (١/ ٣١٧- ٣١٨) .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أول الأمر وأشدِّه عليه وعلى أصحابه أشدَّ على الإنكار عليهم وعيب دينهم وتقبيحه والنَّهي عنه والتَّهديد والوعيد كل وقت وفي كل نادٍ، وقد سألوه أن يكفَّ عن ذكر آلهتهم وعيب دينهم ويتركونه وشأنه، فأبى إلا مضِيًّا على الإنكار عليهم وعيب دينهم، فكيف يقال إن الآية اقتضت تقريره لهم؟! معاذ الله من هذا الزَّعم الباطل »[1].

وقال شيخ الإسلام: « وَهَذِهِ كَلِمَةٌ تَقْتَضِي بَرَاءَتَهُ مِنْ دِينِهِمْ وَلَا تَقْتَضِي رِضَاهُ بِذَلِكَ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [يونس]»[2].

إذًا فليس معنى ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ أن تكون على دينك وأنا علي ديني، وألَّا بأس ولا حرج في ذلك، وليس المعنى إقراره لهم بذلك.

فانظر – أخي القارئ – كيف تُستعمَل الآية في تقرير صحَّة أديان الكفر؟ وهذه قضيَّة في غاية الخطورة، ولذلك فإن النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما أتاه فَرْوَةَ بْنِ نَوْفَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله عَلِّمْنِي شَيْئًا أَقُولُهُ إِذَا أَوَيْتُ إِلَى فِرَاشِي، قَالَ لَه : [اقْرَأْ (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ) فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشِّرك][3].

ثانيًا : قولهم: الإنسان مخـــيَّر بين الأديان:

قال ﷻ : ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾[الكهف: ٢٩]. استدل البعض بهذه الآية على جواز تخيير النَّاس بين الكفر والإيمان، فيقولون : إذا أردت أن تؤمن أو تكفر فأنت مخيَّر ولا مشكلة في ذلك، تريد أن تغيِّر دينك مثلًا من الإسلام إلى النَّصرانيَّة، أو اليهوديَّة فلا ضررَ لأن الله يقول: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (١/ ١٤٨).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٨/ ٢٦٨).

(٣) أخرجه أبو داود برقم (٥٠٥٥)، والتِّرمذيُّ برقم (٣٤٠٣) واللَّفظ له، وصحَّحه الألباني.

﴿ شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾. وهذه مصيبة أخي الكريم! فإذا كان الأمر كذلك فلماذا إذاً جاهد النَّبيُّ ﷺ الكفَّار؟ وقد كان باستطاعته أن يقول لقريش ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾، وأن يقول المسلمون للرُّوم عندما ذهبوا إليهم: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾، وأن يقولوا للفرس عُبَّادِ النَّار كذلك، فهل هذا ما فعلوه؟!

وعندما ارتدَّت العرب بعد وفاة النَّبيّ ﷺ هل قال لهم أبو بكر الصِّدِّيق ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾؟ كلا بل جرَّد سيوف الحقّ لقتالهم.

قال ابن كثير رحمه الله: «يَقُولُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَقُلْ يَا مُحَمَّدُ لِلنَّاسِ: هَذَا الَّذِي جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ رَبِّكُمْ هُوَ الحقّ الذِي لَا مِرْيَةَ فِيهِ وَلَا شَكَّ ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾. هَذَا مِنْ بَابِ التَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {إِنَّا أَعْتَدْنَا}. أَيْ: أَرْصَدْنَا {لِلظَّالِمِينَ} وَهُمُ الْكَافِرُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَكِتَابِهِ ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾ أَيْ: سُورُهَا»[1].

فلو كانت القضيَّة هي الحريَّة في اختيار الأديان فلِمَ جاء هذا التَّهديد والوعيد الشَّديد ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾[الكهف: ٢٩].

فلا بد أن نستكمل الآية كي نفهمها على النَّحو المراد من المولى ﷻ.

ثالثًا: قول البعض: الإسلام دين المحبَّة.

محبَّة الله، ومحبَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومحبَّة المؤمنين فيما بينهم، ومحبَّة الهداية للخلق أجمعين ثابتة بالنُّصوص الشَّرعيَّة: [**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**][2]، [**إِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الْإِيمَانِ أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ،**

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ١٥٤).

(٢) أخرجه البخاري برقم (١٣) من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَتُبْغِضَ فِي اللهِ][1]، لكن هل الدِّين خالٍ من البُغض والكُره؟ لا، لأن الله تعالى قال عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ والذين معه مخاطبًا المسلمين، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

فإذًا من لم يكره الكفر و الكفَّار ولم يبغض الشِّرك والمشركين فأين إيمانه؟ ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾[البقرة: ٢٥٦].

الله تعالى يُبغض الزِّنا، ويكره الفواحش والكذب والظُّلم والكِبر، ويحبُّ الأمانة والصِّدق والوفاء، فالله ﷻ يكره ويحبُّ. إذًا فالإسلام فيه حبٌّ وبغض، وفيه ولاء وبراء .

رابعًا: قولهم بأن القرآن حمَّال أوجه:

يأتي بعضهم مثلًا في تفسير القرآن ، فيقول: القرآن حمّال أوجه، وهذه الكلمة قد يراد بها أن القرآن غنيٌّ وثريٌّ بالمعاني، كما قال ﷻ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾، فالصِّراط المُستقيم هو: الإسلام، والقرآن، والطَّريق الحقّ، أو هو كلُّ ما سبق، وهنالك آيات أو قراءات، وكلُّ قراءة لها معنى، ولا تعارض بين المعاني، يعني اختلاف تنوُّع وليس اختلاف تضادٍّ، فمثلًا في قول الله ﷻ: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ [الفجر]، قيل الشَّفع: يوم عرفة، ويوم الأضحى، والوِتْر ليلة النَّحر، وقيل الشَّفع: اليومان بعد يوم النَّحر، والوتر اليوم الثَّالث، وقيل الشَّفع: الخَلْق كله، والوِتر: الله ﷻ، وقيل الشَّفع: الصَّلوات الثُّنائيَّة والرُّباعيَّة، مثل الفجر والظُّهر والعصر والعشاء، والوِتر: كصلاة المغرب، وقيل الشَّفع: عشر ذي الحِجَّة، والوِتر: أيام منى الثَّلاثة وهي

---

(١) أخرجه أحمد برقم (١٨٥٢٤) عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقال المحقِّق: حسن بشواهده.

أيام التشريق، فيمكن أن تحتمل الآية هذا وهذا، بحسب أساليب اللُّغة العربيَّة وروايات التَّفسير، ويمكن أن نخرج بمعانٍ غنيَّة، ويمكن حمل الآية عليها جميعًا، وكلُّها صحيحة.

قال ﷻ: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩].

قرأ حمزة والكِسائيُّ فيها إثم (كثير) بالثَّاء، لأن شرب الخمر يحدث معه عدة آثام، ففيها إثم كثير، فيحدث معه لغط وسبٌّ وشتم وطلاق وقتل وضرب وإيذاء وعداوة وخيانة وتفريط في الفرائض، فهو إثم كثير متنوِّع.

وقرأ القرَّاء الباقون إثم (كبير) بالباء، كبير من الكِبَر والعِظَم، وكلا المعنيين صحيح، فالخمر فيها إثم كثير ومتنوِّع، وفيها إثم كبير وعظيم، فلا مانع إذًا من اجتماع المعنيَين، ولكن عندما يأتي بعضهم بمعنى للآية لا علاقة له باللُّغة العربيَّة ولم ترد به روايات التَّفسير، ولم يوافق قواعد التَّفسير، فيفسِّرونه على غير مراد الله ﷻ ، بحُجَّة أن القرآن حمّالُ أوجه ، كما فسَّر المبتدعة قوله تعالى ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ ﴾[الرَّحمن]، فقالوا: علي وفاطمة، وقوله تعالى ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الرَّحمن]، فقالوا: الحسن والحسين، وقوله تعالى ﴿ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [الإسراء: ٦٠] فقالوا: شجرة بني أميَّة.. الخ.

فإذا تُرِك الباب مفتوحًا على مصراعيه لمثل هذه التَّأويلات الفاسدة الباطلة لحدثت الفوضى في تفسير القرآن وفي فهم الشَّريعة ، وكلُّ ذلك بحجَّة أن القرآن حمّال أوجه.

خامسًا : استدلالهم الخاطئ بالحديث [أنتم أعلم بأمور دنياكم]:

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَّ بِقَوْمٍ يُلَقِّحُونَ، فَقَالَ: [لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا لَصَلُحَ] قَالَ: فَخَرَجَ شِيصًا، فَمَرَّ بِهِمْ فَقَالَ: [مَا لِنَخْلِكُمْ؟] قَالُوا: قُلْتَ

كَذَا وَكَذَا، قَالَ: [أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ][1].

وفي رواية أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ، فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا، فَلَا تُؤَاخِذُونِي بِالظَّنِّ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللهِ شَيْئًا، فَخُذُوا بِهِ، فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ][2].

وقد يأتي بعض النَّاس الآن مثلًا، ويقول في البيع والشَّراء والنِّكاح: نحن أعلم بأمور دنيانا فلا تقيِّدونا بشيء من الدِّين، لأن النَّبيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لنا: [أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ].

فإذا قلنا هذا فما قيمة قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّمَا الْبَيْعُ عَنْ تَرَاضٍ][3]، وقوله: [الْبَيِّعَانِ بِالخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا][4]، وقوله: [لَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ][5]، وقوله: [لاَ يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ][6]، وقوله: [لاَ تَبِيعُوا الذَّهَبَ بِالذَّهَبِ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ، وَلاَ تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ تَبِيعُوا الوَرِقَ بِالوَرِقِ إِلَّا مِثْلًا بِمِثْلٍ، وَلاَ تُشِفُّوا بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ، وَلاَ تَبِيعُوا مِنْهَا غَائِبًا بِنَاجِزٍ][7]، وأنه: [نَهَى عَنْ بَيْعَتَيْنِ فِي بَيْعَةٍ][8].

كما أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [نَهَى عَنْ بَيْعِ الْغَرَرِ][9]، و[نَهَى عَنِ النَّجْشِ][10]،

---

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٣٦٣).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٢٣٦١).

(٣) أخرجه ابن ماجه برقم (٢١٨٥)، وصحَّحه الألبانيّ.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٢٠٧٩)، ومسلم برقم (١٥٣٢).

(٥) أخرجه مسلم برقم (١٤١٢).

(٦) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٢٧٢٣)، ومسلم برقم (١٥٢٢).

(٧) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٢١٧٧)، ومسلم برقم (١٥٨٤).

(٨) أخرجه أحمد في مسنده بتحقيق الأرناؤوط، برقم (١٠١٤٨)، وإسناده حسن.

(٩) أخرجه أبو داود برقم (٣٣٧٦)، وصحَّحه الألباني.

(١٠) متفق عليه: أخرجه البخاري برقم (٦٩٦٣)، ومسلم برقم (١٥١٦).

و [نَهَى عَنْ ثَمَنِ الدَّمِ، وَثَمَنِ الكَلْبِ][1]، و [نَهَى عَنْ بَيْعِ الثَّمَرَةِ حَتَّى يَبْدُوَ صَلاَحُهَا][2]، وكلُّ الأحكام التي جاءت في الشِّركة والمشاركات واللُّقَطَة والإجارة، وهذه أشياء من أمور الدُّنيا، فإذاً أنتم أعلم بأمور دنياكم فيما لم يرد فيه نصٌّ، فنقول في مثل أنظمة المرور، والملاحة الجويَّة، والرَّي، وتلقيح النَّخل وغير ذلك : [أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ]، فهذه أمور لم نقيِّد فيها بقيد؛ بل نضع لها قوانين بما مصلحتنا وفق ضوابط الشَّرع وأحكامه الكليَّة.

سادسًا: المطالبة بإلغاء الحدود الشَّرعيَّة:

يدَّعي أحدهم ويتبجَّح قائلًا: الحدود غير مناسبة للزَّمن الذي نعيشه الآن، لأن فيها قسوة ووحشيَّة، وإن عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يُقِم حدَّ السَّرِقة في عام الرَّمادة.

ونحن نتسائل: هل عطَّل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدَّ السَّرِقة أو ألغاه ؟ لا، ولكن في سنة من السَّنوات، وكان بعض النَّاس ربما أخذ من مال غيره بدون إذنه استبقاءً لحياته، حيث وقعت المجاعة، فلم يُقِم عليهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدَّ السَّرِقة لماذا ؟

لأن شروط حدِّ السَّرِقة لم تنطبق عليهم في هذه الحالة ولم تتوفَّر، ومعلوم أن الحدود تُدرَأ بالشُّبهات، ووجود المجاعة العامَّة والاضطرار شبهة تدرأ الحدَّ [3].

سابعًا: قولهم "هذه مصلحة يحتاجها المجتمع" :

قد يأتي بعض النَّاس بأحكام يُحِلُّ فيها حرامًا، أو يحرِّم فيها حلالًا، محتجًّا بقاعدة (الدِّين مبنيٌّ على المصالح).

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٢٢٣٨) .

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢١٩٧) .

(٣) انظر – تفضُّلاً – كتاب المؤلف: الحدود في الإسلام بين الرَّحمة والعدل. ط القاهرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فَإِنَّ الشَّرِيعَةَ مَبْنَاهَا وَأَسَاسُهَا عَلَى الْحِكَمِ وَمَصَالِحِ الْعِبَادِ فِي الْمَعَاشِ وَالْمَعَادِ، وَهِيَ عَدْلٌ كُلُّهَا، وَرَحْمَةٌ كُلُّهَا، وَمَصَالِحُ كُلُّهَا، وَحِكْمَةٌ كُلُّهَا؛ فَكُلُّ مَسْأَلَةٍ خَرَجَتْ عَنْ الْعَدْلِ إلَى الْجَوْرِ، وَعَنْ الرَّحْمَةِ إلَى ضِدِّهَا، وَعَنْ الْمَصْلَحَةِ إلَى الْمَفْسَدَةِ، وَعَنْ الْحِكْمَةِ إلَى الْبَعْثِ؛ فَلَيْسَتْ مِنْ الشَّرِيعَةِ وَإِنْ أُدْخِلَتْ فِيهَا بِالتَّأْوِيلِ »[1].

ونقول: هل صارت المصلحة كلمة فَوْضَوِيَّة، غير محدَّدة؟ أم أن لها أحكام وضوابط ؟

إن المصلحة الحقّيقيَّة تتوافق مع الشَّرع، ولا يوجد مصلحة حقيقيَّة تتعارض مع الشَّرع، وإن وُجِدت فهي إما ملغيَّة أو ليست مصلحة أصلًا، ولذلك وضع العلماء ضوابط للمصالح المعتبرة حتى تكون حقيقيَّة.

ومن هذه الضَّوابط:

أولًا: أن تندرج هذه المصلحة ضمن مقاصد الشَّرع.

مثلًا: فالشَّرع يحافظ على النُّفوس والعقول والأموال والأعراض وعلى الدِّين قبل كلِّ شيء، وعليه فلابدَّ أن تكون المصلحة المدَّعاة مندرجة ضمن هذه الخمس المذكورة .

ثانيًا: أن لا تعارض نصًّا من الكتاب والسنَّة ، لأنه لا يمكن للشَّرع أن يترك مصلحة صحيحة ويهملها ويأتي بضدِّها.

ثالثًا: عدم تفويتها لمصلحة أهمَّ منها.

وهنا بدعة خطيرة جدًّا الآن يروِّج لها البعض، وهي تعطيل النُّصوص بحجَّة المصالح والمقاصد ، فبعض النَّاس من أصحاب الهوى يريدون أن يتخلَّصوا من النُّصوص التي يرون أنها تقيِّدهم ، فماذا يفعلون؟، فقالوا: لابدَّ من فقه جديد، وهذا الجديد ليس مبنيًّا على النُّصوص، بل مبنيٌّ على نظريَّة المصالح ونظريَّة المقاصد، فيدخلون ما شاءوا فيها ويخرجون ما شاءوا،

---

(١) إعلام الموقِّعين، لابن القيِّم (٣/ ١١).

بحجَّة هذه النظريَّة.

وأين نحن من القول الفصل للنَّبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : [**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا : كِتَابَ اللهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**][1].

ثامنًا: تجديد الخطاب الدِّينيِّ :

لعلَّ البعض يعتقد أن المراد من هذه الكلمات هو الاستعانة بالنُّصوص السَّهلة في مخاطبة النَّاس، فلا نأتي بنصٍّ يشكل عليهم، نظرًا لضعف مستوى اللُّغة العربيَّة عند الكثيرين، ثم نزيد من الأدلَّة المقنعة العقليَّة مثلًا، بالإضافة إلى الأدلَّة الشَّرعيَّة، مع استخدام الأنظمة السَّمعيَّة والبصريَّة الجديدة في وسائل العرض، وهذا هو ما ينبغي أن يفهم من هذه الكلمات ، إلا أن قائليها على الحقيقة إنما يقصدون مرادًا آخر يعني في حقيقته التَّبديل والتَّحريف لا التَّجديد ، فقد أراد بعضهم من هذا التَّجديد مثلًا :

- خلع الحجاب بحجَّة أنه رمز للتخلُّف والتحجُّر .
- حلق اللِّحى بحجَّة أن إعفاءها ينافي النظافة والأناقة والذَّوق العامِّ .
- عدم الحديث عن عذاب القبر أوعذاب جهنم لئلا يشيع الرُّعب بين النَّاس بذكر النَّار وأهوالها.
- إباحة الرِّبا لضرورات عصريَّة ...

فأيُّ تجديد هذا الذي يريدون ؟

إن شعار "تجديد الخطاب الدِّيني" إنما هو شعار برَّاق يُخفي تحته مغالطات ومخالفات كبيرة للشَّريعة، وليس التَّجديد هنا هو ما أخبر عنه النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: [**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**][2]، فهذا تجديد شرعي يُرَدُّ به النَّاس إلى السُّنَّة بعد البدعة ، إلى الأصل

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ كتاب القدر ، باب النَّهي عن القول بالقدر .

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٢٩١) ، وصحَّحه الألباني .

الذي كان عليه النَّبيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وأصحابه، بفهم السَّلف الصَّالح للكتاب والسُّنَّة، وهو التَّجديد الحقّ، الذي سلكه أئمة التَّجديد كعمر بن عبد العزيز والشَّافعيِّ وأحمد وابن تيميَّة ومحمد بن عبد الوهَّاب والألباني ، وغيرهم ، لا ما يريده الكثيرون اليوم ممن ينطقون بهذه الكلمة بدعوى العصريَّة والعقليَّة ، فما يطالبون به ليس تجديدًا بل هو على الحقيقة تحريف باطل لا يمكن الرِّضا به.

تاسعًا: الضَّرورات تبيح المحظورات :

هذه قاعدة شرعيَّة صحيحة مستقاة من قوله ﷻ: ﴿ **فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ** ﴾ [المائدة: ٣]، وقوله: ﴿**فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ** ﴾ [البقرة: ١٧٣].. لكن قد يأتي بعض النَّاس ويستدلُّ بها على إباحة قرض بالرِّبا لبناء مسكن لأنه لا يريد أن يكون مستأجِرًا، وقد يستدلُّ بها على مصافحة المرأة الأجنبيَّة ويعتذر بأنها هي التي مدَّت يدها واستحيا من ردِّها؟ وآخر ذهب للدِّراسة وأقيمت حفلة بالجامعة ووزِّعت كؤوس الخمر وشرب الطُّلاب فاضطرَّ للشُّرب منعًا لوقوعه في الإحراج، فهل يجوز هذا بحُجَّة أن الضَّرورات تبيح المحظورات ؟ وما هي الضَّرورة في الشَّرع إذن ؟

إن الضَّرورة هي الحالة التي يترتَّب عليها ضرر يعود بالهلاك على النَّفس أو المال أو العِرض، وهو الذي تخفَّف بسببه بعض الأحكام الشَّرعيَّة بما يناسب الحال، لإنقاذ الإنسان من مهلكة، أما التَّساهل والتَّسيُّب في الدِّين بحُجَّة أن هذه ضرورة تبيح المحظور، فهذا بلا شكَّ تضييع للدِّين وفوضى، ولذلك لا يمكن مثلًا أن يكون إباحة الرِّبا لتوسيع الأنشطة التجاريَّة والصناعيَّة... من الضَّرورة إطلاقًا، ولذلك فقد وضع العلماء ضوابط لتحديد الضَّرورة الشَّرعيَّة، ومنها:

أولًا: أن لا يكون سبيل إلى دفعها.

ثانيًا: أن يُخشَى معها الهلاك.

ثالثًا: أن يقتصر في المحظور على ما يدرأ الضَّرورة فقط.

أي إذا كان دفع الهلاك والضَّرورة بأكل الميتة يحصل بلقمتين فلا يجوز أكل ثالثة، حيث يقتصر على ما يدفع الضَّرورة فقط بلا توسَّع.

عاشرًا: الإسلام دين الوَسَطِيَّة:

قال الله ﷻ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾[البقرة: ١٤٣].

قال المفسِّرون: خيارًا عدولًا، لأن الجنَّة أوسطها أعلاها، فإذا قلت: هذا الإنسان وسط القبيلة، فإنك تعني أنه أشرفهم . وهذه عبارة صحيحة.

أمَّا أن يدَّعي أحد تحليل الحرام بدعوى الوَسَطِيَّة فلا يجوز ، كمن يحلِّل الغناء والخمر.

فالوَسَطِيَّة كلمة جميلة انتزعها أهل الباطل ليبرِّروا بها فعل المحرَّمات وترك الواجبات ، مثال ذلك: لو جاء أحدهم وقال: لا تكن مبالغًا في تطبيق السُّنن، وأداء الرَّواتب، وقيام الليل، وركعتي الضُّحى، ولا تكن من الناحية الثَّانية تاركًا للصلاة، وكن وسطًا ويكفي أن تؤدِّي الفرائض فهل هذه هي الوَسَطِيَّة؟

إن النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علَّمنا أداء الفرائض، والسُّنن الرَّواتب، وقيام الليل، وصلاة الضحى، ورغَّبنا في أداء كل ذلك وغيره، وهذه هي الوَسَطِيَّة .

حادي عشر : الدِّين يُسْر :

قال ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ ﴾[البقرة:١٨٥]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّ الدِّين يُسْر، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّين أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ][1]، ولكن ما هو اليُسْر الشَّرعي المراد ؟

لِليُسْر الشَّرعيِّ صور عديدة في شريعتنا السَّمحاء ، فمنها :

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٩) .

١- الجمع بين الصَّلاتين للمسافر، وفي المطر للمقيم، وللمريض .
٢- قصر الصَّلاة الرباعيَّة للمسافر .
٣- جواز الفطر في رمضان للمسافر .
٤- سقوط طواف الوداع عن الحائض.
٥- سقوط الجمعة عمن حضر العيد إذا اجتمعا في يوم واحد.
٦- جواز صلاة النَّافلة جالسًا .
٧- جواز جمع رمي يومين في يوم واحد للحاجِّ المعذور.
٨- جواز النَّظر للمرأة الأجنبيَّة عند الخِطبة والعلاج.
٩- المسح على الخفَّين والجوربَيْن للمقيم يومًا وليلة، وللمسافر ثلاثة أيام ولياليهنَّ .

فهذه أمثلة صحيحة على يسر الدِّين وسماحته، فماذا يفعل بعض النَّاس؟ يأتون إلى محرَّمات ويريدون إباحتها أو إلى واجبات يريدون إسقاطها، ويحتجُّون بأن الدِّين يُسْر .

ومن أمثلة ذلك:

- إباحة تدخين سيجارتين في اليوم للصَّائم بحُجَّة أن الدِّين يُسْر.
- إجازة التَّضحية بالدَّجاج بدل الخراف لارتفاع أسعارها بحُجَّة أن الدِّين يُسْر.
- جواز دفن الميِّت قائمًا توفيرًا لمساحة الأراضي بحُجَّة أن الدِّين يُسْر.
- جواز أداء صلاة الجمعة يوم الأحد للمبتعثين لأنه يوم إجازة عندهم، بينما يوم الجمعة يوم دراسة، وذلك بحجَّة أن الدِّين يُسْر.
- يجوز للمرأة وضع العطر الخفيف عند الضُّيوف بحُجَّة أن الدِّين يُسْر.

وهكذا صارت إباحة المحرَّمات وإسقاط الواجبات بحُجَّة أن الدِّين يُسْر، وصرنا نتفاجأ كل يوم بفتاوى شاذَّة وغريبة وساقطة، وأقوال مرذولة ورُخَص واهية، وكل ذلك بحُجَّة أن الدِّين يُسْر.

ثانى عشر : تغيُّر الفتوى بتغيُّر الزَّمان والمكان:

هذه القاعدة يعبر عنها بعض العلماء بقولهم : (لا ينكر تغيُّر الأحكام بتغيُّر الزمان)[1] ، وكلمة " الأحكام " الواردة في القاعدة ، مخصوصة بالأحكام المبنيَّة على العرف والعادة ، فهذه هي التي تتغيَّر بتغيُّر الزَّمان والمكان والحال.

قال في درر الحكَّام شرح مجلة الأحكام : " إنَّ الْأَحْكَامَ الَّتِي تَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَزْمَانِ هِيَ الْأَحْكَامُ الْمُسْتَنِدَةُ عَلَى الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ؛ لِأَنَّهُ بِتَغَيُّرِ الْأَزْمَانِ تَتَغَيَّرُ احْتِيَاجَاتُ النَّاسِ، وَبِنَاءً عَلَى هَذَا التَّغَيُّرِ يَتَبَدَّلُ أيضًا الْعُرْفُ وَالْعَادَةُ وَبِتَغَيُّرِ الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ تَتَغَيَّرُ الْأَحْكَامُ حَسْبَمَا أَوْضَحْنَا آنِفًا، بِخِلَافِ الْأَحْكَامِ الْمُسْتَنِدَةِ عَلَى الأدلَّة الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي لَمْ تُبْنَ عَلَى الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ فَإِنَّهَا لَا تَتَغَيَّرُ.

مِثَالُ ذَلِكَ: جَزَاءُ الْقَاتِلِ الْعَمْدِ الْقَتْلُ. فَهَذَا الْحُكْمُ الشَّرْعِيُّ الَّذِي لَمْ يَسْتَنِدْ عَلَى الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ لَا يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَزْمَانِ، أَمَّا الَّذِي يَتَغَيَّرُ بِتَغَيُّرِ الْأَزْمَانِ مِنْ الْأَحْكَامِ، فَإِنَّمَا هِيَ الْمَبْنِيَّةُ عَلَى الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ، كَمَا قُلْنَا، وَإِلَيْكَ الْأَمْثِلَةُ:

كَانَ عِنْدَ الْفُقَهَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ أَنَّهُ إِذَا اشْتَرَى أَحَدٌ دَارًا اكْتَفَى بِرُؤْيَةِ بَعْضِ بُيُوتِهَا، وَعِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ لابدَّ مِنْ رُؤْيَةِ كُلِّ بَيْتٍ مِنْهَا عَلَى حِدَتِهِ، وَهَذَا الِاخْتِلَافُ لَيْسَ مُسْتَنِدًا إِلَى دَلِيلٍ، بَلْ هُوَ نَاشِئٌ عَنْ اخْتِلَافِ الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ - فِي أَمْرِ الْإِنْشَاءِ وَالْبِنَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَادَةَ قَدِيمًا فِي إِنْشَاءِ الدُّورِ وَبِنَائِهَا أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ بُيُوتِهَا مُتَسَاوِيَةً وَعَلَى طِرَازٍ وَاحِدٍ، فَكَانَتْ عَلَى هَذَا رُؤْيَةُ بَعْضِ الْبُيُوتِ تُغْنِي عَنْ رُؤْيَةِ سَائِرِهَا، وَأَمَّا فِي هَذَا الْعَصْرِ فَإِذْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِأَنَّ الدَّارَ الْوَاحِدَةَ تَكُونُ بُيُوتُهَا مُخْتَلِفَةً فِي الشَّكْلِ وَالْحَجْمِ لَزِمَ عِنْدَ الْبَيْعِ رُؤْيَةُ كُلٍّ مِنْهَا عَلَى الِانْفِرَادِ "[2].

وقد مثَّل العلماء لهذه القاعدة : بِقبُول شَهَادَة الأمثل فالأمثل والأقلِّ فجورًا فالأقلّ، وذلك لندرة الْعَدَالَة وقِلّتها فِي هَذِه الْأَزْمَان، كما جوَّزوا

---

(١) انظر مجلة الأحكام العدليَّة – المادة ٣٩ ، وشرح القواعد الفقهيَّة للزُّرقا ، ص/ ٢٢٧.

(٢) درر الحكَّام شرح مجلة الأحكام للشيخ علي حيدر (١/ ٤٧-٤٨) .

تَحْلِيف الشُّهُود عِنْد إلحاح الْخصم، وَإِذا رأى الْحَاكِم ذَلِك لفساد الزَّمَان، وغير ذلك[1]، وبعدم جواز بيع السلاح أثناء الفتنة والحرب بين المسلمين، بينما يجوز بيعه في الأحوال العاديَّة وبضوابط.

أما الأحكام الثَّابتة التي لا تتغيَّر ولا تتبدَّل بتبدُّل الزَّمان أو المكان أو الأشخاص أو البلدان فهي :

١- الأحكام الأساسيَّة الثَّابتة في القرآن والسنَّة، والتي جاءت الشَّريعة لتأسيسها بنصوصها الأصليَّة : الآمرة والنَّاهية، كحرمة الظُّلم ، وحرمة الزِّنا والرِّبا، وشرب الخمر والسَّرِقة، وكوجوب التَّراضي في العقد ، ووجوب قمع الجرائم وحماية الحقوق .

٢- جميع الأحكام التعبُّديَّة، وأركان الإسلام، وما علم من الدِّين بالضَّرورة.

٤- ما يتعلَّق بأمور العقيدة الثَّابتة منذ نزولها ومن عهد الأنبياء والرُّسل السَّابقين ، حتى تقوم السَّاعة .

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الأحكام نوعان: نوع لا يتغيَّر عن حالة واحدة هو عليها لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ، ولا اجتهاد الأئمَّة ، كوجوب الواجبات وتحريم المحرَّمات، والحدود المقدَّرة بالشَّرع على الجرائم، ونحو ذلك، فهذا لا يتطرَّق إليه تغيير ولا اجتهاد يخالف ما وضع عليه، والنَّوع الثَّاني: ما يتغيَّر بحسب اقتضاء المصلحة له زمانًا ومكانًا وحالًا ، كمقادير التَّعزيرات وأجناسها وصفاتها »[2].

فالقاضي قد يختلف حكمه في العقوبات التَّعزيريَّة من جَلد أو سَجن، أو تغريم بالمال من شخص لآخر مع ارتكابه لنفس الجريمة، فقد يحكم على المجرم تعزيرًا بسجن شهر، وجلد مائتي جلدة، وغرامة ألف جنيه ، ونفس الجريمة يرتكبها شخص آخر، فيحكم عليه بالسّجن سنة، وجَلد سبعِمائة

---

(١) انظر شرح القواعد الفقهيَّة للزُّرقا ، ص / ٢٢٩ .

(٢) إغاثة اللهفان من مصائد الشَّيطان ، لابن القيم (١/ ٣٣٠- ٣٣١) .

جَلدة، وغرامة مائة ألف جنيه، فإذا سئل عن ذلك ربَّما أجاب بأن الأول ارتكب ذلك لأول مرَّة، بينما الآخر ارتكبها للمرَّة السَّادسة وبنفس الجريمة، أي أن العقوبات التَّعزيريَّة فيها مجال للاجتهاد والتغيير، وقد يختلف الحكم باختلاف الأشخاص.

وبهذا يتبيَّن أنه لا إشكال فى هذه القاعدة، وأنه لا حجَّة فيها لمن يريد إباحة المحرَّمات المجمع عليها كالرِّبا أو الخمر أو الاختلاط ونحو ذلك، أو يريد إلغاء الحدود والعقوبات، لتغيُّر الزَّمان! فإن هذه الأمور المذكورة ثابتة بالنُّصوص الواضحة من الكتاب والسنَّة، فلا مجال لتغييرها أو تبديلها، إلا أن ينخلع الإنسان من دينه رأسًا.

ثالث عشر: الدِّين ليس ملكًا لأحد (لا كهنوتيَّة في الإسلام):

والمراد بهذه العبارة أننا لسنا مثل النَّصارى. فللكهنوت عندهم منصب دينيٌّ ورجال دين يأتي إليهم النَّاس ويقِرُّون عندهم بالذَّنب، فيُعطونهم صكَّ غفران. فهذا كلام باطل. لهذا يجب أن نفهم متى تقال هذه العبارة، ولمن ؟

وقد يريد بعض المغرضين أو من لا علم لهم بهذه العبارة مثلًا إلغاء منصب الإفتاء، وجعل الكلام في الأحكام الشَّرعيَّة متاحًا للجميع، فيُفتي الشَّاعر والطَّبيب والمحامى وغيرهم من غير الدَّارسين لعلوم الشَّريعة واللُّغة.. وهذا من القول على الله بغير علم، وقد حرَّم الله تعالى ذلك، وجعله من جملة المحرَّمات في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾** ﴾ [الأعراف]، فلا يمكن أن نُلغِي دور العلماء أو نتنازل عن الشُّروط الواجب توافرها فيمن يتصدَّر للإفتاء، ثمَّ نفتح الباب على مصراعيه للكلام في الفتاوى والأحكام لكلِّ من هبَّ ودبَّ، وللجاهل والمنافق والزِّنديق والملحد ليتكلَّم في الدِّين كيف يشاء، بحُجَّة أن الدِّين ليس

حكرًا على أحد ولا كهنوتيَّة في الإسلام.

قال الله ﷻ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النَّحل]،

وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النِّساء: ٨٣].

رابع عشر: لا إنكارَ في مسائل الخلاف:

هذه القاعدة غير صحيحة على إطلاقها، والصحيح أن يقال: "**لا إنكارَ في مسائل الاجتهاد**"، وما هي مسائل الاجتهاد؟

مسائل الاجتهاد: هي التي ليس فيها نصٌّ صريح بلا معارض؛ لأنه قد يكون هناك نصٌّ يعارضه نصٌّ في موضع آخر، أو هناك نصٌّ لكنه منسوخ، أو هناك نصٌّ مخصَّص، أو اختلف العلماء في طريقة الجمع بين النَّصَّيْن.

وإذا قلنا: لا إنكار في مسائل الخلاف؛ فقد يأتينا شخص ويختار قولًا شاذًّا، ويقول: لا تُنكِروا عليَّ، فالقاعدة تقول: لا إنكار في مسائل الخلاف، وقد أخذت بهذا القول، فإذا رجعنا إلى القضيَّة وجدنا أن القول الذي اختاره قول شاذٌّ، منكر، ضعيف، ساقط.. كالقول بجواز أخذ الفوائد البنكيَّة المصرفيَّة، أو جواز الرِّبا لو كانت الفائدة اثنتين أو ثلاث في المائة، أما عشرة في المائة فلا يجوز، وكالقول بجواز استماع الموسيقى والغناء، وجواز اختلاط الرِّجال بالنِّساء الاختلاط الدَّائم، وغير ذلك ...

قال الشيخ بكر أبو زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولم يفلح من جعل من هذا الخلاف سبيلًا إلى تتبُّع رخص المذاهب ونادر الخلاف والتقاط الشَّواذِّ وتبنِّي الآراء المهجورة، والغلط على الأئمة، ونصبها للنَّاس دينًا وشرعًا، مثل: الفتوى بجواز الفوائد الرِّبويَّة، وشهادات الاستثمار، وسندات الخزينة، وفتوى إباحة التَّأمين، وفتوى إباحة السُّفور، وفتوى إباحة الاختلاط، وكلُّها فتاوى شاذَّة فاسدة تمالئ

الرَّغبات »[1].

والصَّواب أن نقول (لا إنكار في مسائل الاجتهاد)، مثل:

- هل مسّ الذَّكَر ينقض الوضوء أم لا ؟
- هل تقرأ الحائض القرآن أم لا تقرأ ؟
- هل يكون النُّزول في السُّجود على اليدين أم على الرُّكبتَين ؟
- هل تُقرأ الفاتحة خلف الإمام في الصَّلاة الجهريَّة أم لا ؟
- هل يُجهَر بالبسملة في الصَّلاة أم يُسَرُّ بها ؟
- هل الحِجامة تفطِّر الصائم أم لا ؟
- هل تجوز صلاة النَّوافل ذوات الأسباب في أوقات النَّهي أم لا ؟
- هل تجب الزَّكاة في الذَّهب المُعَدِّ للاستعمال أم لا ؟

فهذه كلها مسائل اجتهاديَّة، قد اختلف فيها العلماء، ولكلٍّ أدلَّته.

خامس عشر : استدلالهم الخاطئ بالحديث [النِّساء شقائق الرِّجال][2]:

وقد يأتي من يحتجُّ بهذا النَّصِّ النَّبويِّ الشَّريف على التَّسوية بين الجِنْسَيْن في كلِّ شيءٍ، والحقّ أن الشَّرع فرَّق بين الجِنسَيْن في بعض الأحكام، فقد فرَّق بينهما في الميراث، وفرَّق بينهما في العَقيقة، وفرَّق بينهما في الدِّية، كما فرَّق الله بينهما في طبيعة الخِلْقَة والتَّكوين ؛ لأنه يترتَّب على القول بالمساواة مفاسد عظيمة، كوجوب لبس الرِّجال للحِجاب كشأن النِّساء، ويجب على المرأة أن تصلِّي في وقت الحَيْض، تسوية لها بالرِّجال، وأنه يجوز للمرأة أن تتزوَّج أربعة من الرِّجال في وقت واحد، ... إلى آخر ذلك من المفاسد .

ولذلك يقال في معنى الحديث [**إِنَّمَا النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**] : إن الأصل أن تكون أحكام المرأة مثل أحكام الرجل ما لم يدلَّ الدَّليل على التَّفريق بينهما،

---

(١) المدخل المفصَّل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل (١/ ١٠٧).

(٢) هو نصُّ حديث أخرجه أبو داود برقم (٢٣٦) ، والتِّرمذيّ برقم (١١٣) ، وصحَّحه الألبانيّ في صحيح أبي داود برقم (٩٥).

وقد دلَّت الأدلَّة على التَّفريق بينهما في مواضع متعدِّدة.

٤) المجادَلة بالباطل:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

« لقد ذمَّ الله ﷻ في القرآن ثلاثة أنواع من المجادَلة: ذمَّ أصحاب المجادَلة بالباطل ليُدْحِض به الحقَّ، وذمَّ المجادَلة في الحقِّ بعد ما تبيَّن، وذمَّ المحاجَّة فيما لا يعلم المحاجُّ.

فقال ﷻ: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

وقال ﷻ: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦].

وقال ﷻ: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران: ٦٦] ...

والمقصود هنا أن السَّلف كانوا أكمل النَّاس في معرفة الحقّ وأدلَّته والجواب عما يعارضه وإن كانوا في ذلك درجات، وليس كل منهم يقوم بجميع ذلك بل هذا يقوم بالبعض، وهذا يقوم بالبعض كما في نقل الحديث عن النَّبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغير ذلك من أمور الدِّين.

والكلام الذي ذمُّوه نوعان: أحدهما: أن يكون في نفسه باطلًا وكذبًا، وكلُّ ما خالف الكتاب والسُّنَّة فهو باطل، فإن أصدق الكلام كلام الله.

والثَّاني: أن يكون فيه مفسدة مثلما يوجد في كلام كثير منهم : من النَّهي عن مجالسة أهل البدع ومناظرتهم ومخاطبتهم والأمر بهجرانهم، وهذا لأن ذلك قد يكون أنفع للمسلمين من مخاطبتهم، فإن الحقَّ إذا كان ظاهرًا قد عرفه المسلمون وأراد بعض المبتدعة أن يدعو إلى بدعته فإنه يجب منعه من ذلك فإذا هُجِرَ وعُزِّرَ - كما فعل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بصُبَيغ بن عسل التميمي، وكما كان المسلمون يفعلونه-، أو قُتِل -كما قتَل المسلمون الجعدَ بن درهم وغيلانَ القَدَريَّ وغيرهما - كان ذلك هو المصلحة

بخلاف ما إذا ترك داعيًا، وهو لا يقبل الحقّ: إما لهواه، وإما لفساد إدراكه، فإنه ليس في مخاطبته إلا مفسدة وضرر عليه وعلى المسلمين.

والمسلمون أقاموا الحجَّة على غيلان ونحوه وناظروه وبيَّنوا له الحقّ كما فعل عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ واستتابه ثم نكت التَّوبة بعد ذلك فقتلوه.

وكذلك علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعث ابن عبَّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إلى الخوارج فناظرهم ثم رجع نصفهم ثم قاتل الباقين.

والمقصود أن الحقّ إذا ظهر وعُرِفَ وكان مقصود الدَّاعي إلى البِدعة إضرار النَّاس قُوبِل بالعقوبة.

قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ ١٦﴾ [الشُّورى].

وقد ينهَوْن عن المجادَلة والمناظَرة إذا كان المناظِر ضعيف العلم بالحجَّة وجواب الشُّبْهة فيخاف عليه أن يُفسِده ذلك المُضِلُّ، كما يَنْهى الضَّعيف في المقاتلة أن يقاتل عِلْجًا قويًّا من علوج الكفَّار، فإن ذلك يضرُّه ويضرُّ المسلمين بلا منفعة، وقد يُنهى عنها إذا كان المناظِر معانِدًا يظهر له الحقّ فلا يقبله -وهو السوفسطائي- فإن الأمم كلهم متَّفقون على أن المناظرة إذا انتهت إلى مقدِّمات معروفة بيِّنة بنفسها ضروريَّة وجحدها الخصم كان سوفسطائيًا، ولم يؤمَر بمناظرته بعد ذلك؛ بل إن كان فاسد العقل داوَوْه، وإن كان عاجزًا عن معرفة الحقّ -ولا مضرَّة فيه- تركوه وإن كان مستحقًّا للعقاب عاقبوه مع القدرة: إما بالتَّعزير، وإما بالقتل، وغالب الخلق لا ينقادون للحقِّ إلا بالقهر»[1].

ومن فوائد مجادلة أهل الباطل:

قال الشَّيخ السَّعدي في تفسيره: «فالله ﷻ -من رحمته- بالعباد، قد يسَّر

(١) درء تعارض العقل والنَّقل، لابن تيمية (٣/ ٣٧٤).

لهم أسباب الهداية غاية التَّيسير، ونبَّههم على سلوك طرقها، وبيَّنها لهم أتمَّ تبيين، حتى إن من جملة ذلك أنه يقيِّض للحقِّ المعاندين له فيجادلون فيه، فيتَّضح بذلك الحقّ، وتظهر آياته وأعلامه، ويتَّضح بطلان الباطل، وأنه لا حقيقة له، ولولا قيامه في مقابلة الحقّ، لربما لم يتبيَّن حاله لأكثر الخلق، وبضدِّها تتبيَّن الأشياء، فلولا اللَّيل ما عرف فضل النَّهار، ولولا القبيح، ما عرف فضل الحسن، ولولا الظُّلمة ما عرف منفعة النُّور، ولولا الباطل ما اتَّضح الحقّ اتِّضاحًا ظاهرًا، فلله الحمد على ذلك »[1].

ومن الفوائد أيضًا، أن كثيرًا من عوامِّ النَّاس يظنُّ أن كل قول لك أن تأخذ به والأمر واسع، ومع هذه الرُّدود الطَّيبة من العلماء النَّاصحين على الفتاوى المخالفة للدَّليل، تبيَّن لهم أنه ليس كل قول يؤخَذ به حتى يدلَّ عليه الدليل، فلذلك قد تجد جمعًا من العوامِّ يطالبك بالدَّليل إذا قلت له حكم كذا وكذا.

وهذه فائدة استفادها النَّاس بسبب الآراء المخالفة للأدلَّة وردود العلماء عليهم بالأدلَّة الصَّحيحة.

٥) الاستدلال بالكثرة الضَّالَّة:

وذلك لتبرير الباطل وإعطائه الأرضيَّة الخصبة أو الأحقيَّة في الوجود، وهذا ما يسمَّى في هذا الزَّمن في الصَّحافة بالرَّأي العام، وربُّنا ﷻ يقول : ﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣ ﴾ [يوسف]، ويقول : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ] .

فيأتي من يطرح فكرة أو ينشر رأيًا ويزيِّنه للنَّاس بدعوى أنه الحقّ؛ ولكنَّا نقول: إن الحقّ دليله كتاب الله وسنَّة رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ، وقد أشار الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ إلى هذا الجانب بقوله: [**فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ**

(١) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان، للعلامة عبد الرَّحمن السَّعدي، صـ٧٣.

الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ. تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ][1].

فأمَرَنا أن نتمسَّك بها، لأنه من المتصوَّر أن يقول البعض: مادام الشَّيء شائعًا بين النَّاس فهذا دليل أنه الحقّ، ونتيجة لارتباط هذه النَّاحية في نفوس كثير من المسلمين تجدهم يحاربون أهل الخير والفضل إذا رأوهم على سنَّة من سنن الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويقومون بالنَّكير عليهم .

وليست الأكثريَّة دائمًا على الباطل؛ بل تكون في بعض الأحيان على الحقّ ، وخصوصًا في القرون والأزمان المفضَّلة، ففي عصر النَّبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت الأكثريَّة على الحقّ، وجماعة المسلمين في العموم هي على الحقّ من حيث الجملة؛ ولذا أمرنا الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلزوم الجماعة فقال: [**عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيطان مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ . مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الجَنَّة فَلْيَلْزَم الْجَمَاعَةَ]**[2].

وجماعة المسلمين هذه أو أهل السُّنَّة والجماعة لها أصولها ومبرِّرات وجودها ومن أعظم المبرِّرات التمسُّك بالكتاب والسُّنَّة، ويكون للمسلم من النِّسبة إليهم بقدر تمسُّكه بكتاب الله وسنَّة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكن يمكن أن ينتسب بعض النَّاس إلى أهل السُّنَّة والجماعة أو لجماعة المسلمين ويكون فيه شيء من الباطل، وفيه شيء من البدع. هذا متصوَّر وموجود واقعيًّا أيضًا .

٦) نشر الأحاديث الضَّعيفة والموضوعة بين النَّاس.

والمراد بالأحاديث الموضوعة الأحاديث المكذوبة على الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينشرونها بين النَّاس لأنها تحمل معاني باطلة فاسدة .

وأهل الباطل يعرفون أن المسلمين يحبُّون سنَّة الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويحبُّون التَّعرُّف عليها ، فيضعون بعض الأحاديث وينسبونها للرَّسول

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٠٧) ، وابن ماجه برقم (٤٢) ، وصحَّحه الألباني .

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٢٣١٨) ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم (٢٥٤٦) .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا سمعها عوامُّ المسلمين قالوا هذا قاله الرَّسول إذاً فهو حقٌّ، وهو في الحقيقة والواقع أمر مكذوب على الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا أصل له ، وهم لا يكذبون على الرَّسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقط ، بل يوردون بعض الأكاذيب على علماء المسلمين الذين هم قدوة للأمَّة من أجل أن ينشروا ذلك الباطل، فينسبون بعض الباطل إلى بعض علماء الأمَّة المقتدَى بهم من أجل أن ينتشر الباطل ويظهر بين النَّاس .

٧) تسمية الأشياء بغير اسمها:

إنّ الشَّهَوات البشريَّة الرَّخيصة من أوسع مداخل الشَّيطان، فهو بوسوسته وتلبيسه يتلمَّس وينتهز بعض شهوات النَّاس ورغباتهم النَّفسيَّة، فيُغريهم بأسماء محبَّبة للنُّفوس ليُلَبِّس عليهم دينهم، فيخدع الإنسان نفسه ويغالط حِسَّه فيرتكب المخالفات، كتحليل ما حرَّم الله وإسقاط ما فرضه، ومخالفة أوامره ونواهيه، متأوِّلًا استحلالها، كما حكى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن آدم وزوجه عليهما السَّلام : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الأعراف] .

لقد أدرك الشَّيطان أن آدم بحُكم جبلَّته يحب الخلود ومُلْكًا غير محدود، فخدعه بتسمية الشَّجرة التي مُنِع منها بشجرة "الخُلْد"، ليحمله على المخالفة الإلهيَّة، فانساق آدم وراء إغراءات الشَّيطان وتلبيسه: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [طه].

إمَّا متأوِّلًا أمر الله من غير قصد المعصية، أو ناسيًا تحذير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [طه] .

وقد سمَّى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه النَّصائح الشَّيطانيَّة غرورًا وخداعًا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ﴾ [الأعراف: ٢٢].

ومن هذا القبيل استحلال محارم الله بالحِيَل والتَّأويلات الفاسدة، كما فعل أصحاب السَّبْت. قال ﷻ: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الأعراف].

وَقَدْ ذَكَرَ جَمَاعَاتٌ مِنْ الْعُلَمَاءِ وَالْفُقَهَاءِ وَأَهْلِ التَّفسير أَنَّهُمْ احْتَالُوا عَلَى الصَّيْدِ يَوْمَ السَّبْتِ بِحِيلَةٍ تُخَيَّلُ بِهَا فِي الظَّاهِرِ أَنَّهُمْ لَمْ يَصِيدُوا فِي السَّبْتِ(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَيَشْرَبَنَّ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي الْخَمْرَ ، يُسَمُّونَهَا بِغَيْرِ اسْمِهَا ، يُعْزَفُ عَلَى رُءُوسِهِمْ بِالْمَعَازِفِ ، وَالْمُغَنِّيَاتِ ، يَخْسِفُ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ، وَيَجْعَلُ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ](٢).

وقد صدق الصَّادق المصدوق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقد وُجِدَ من أتباع الشَّيطان وأعوانه من ينفِّذ مكايده وحِيَله، فيسمِّي الأشياء المحرَّمة بغير اسمها ليستميل عقول الضُّعفاء إلى استحلال ما حرَّم الله ، فيسمُّون مثلًا الرِّشوةَ بالهديَّة ، والرَّقصَ والغناء بالفنِّ والموهبة، والزَّندقة والضَّلال بحريَّة الرَّأي والتَّنوير، وينادون بحريَّة المرأة وحقوقها بغرض التحلُّل من قيود شرع الله ، والخمرَ بأمِّ الأفراح أو عصير العنب أو النَّبيذ المسكِر، والميسرَ بالمرابحة الماليَّة.

فكل باطل مُزَيَّن يرتكبه الإنسان عليه مسحة من الشَّيطان تُزيِّنه وتظهره على غير حقيقته، وكلما وجد النَّاس من نفوسهم شهوة باطلة فإنما هي من

---

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيميَّة (٦/ ٢٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم (٤٠٢٠) ، وأصله عند أبي داود والنَّسائي ، وصحَّحه الألباني .

الشَّيطان، وقد زيَّن للنِّساء التبرُّج والسُّفور فرأَيْنَهُ أناقة وتحضُّرًا، وزيَّن اتِّخاذ الأخدان مقام تعدُّد الزَّوجات، وزيَّن الدَّعوة إلى الاشتراكيَّة بزعم أنها تخلِّص النَّاس من الجوع والحيرة والضَّياع ، وزيَّن التَّعامل بالرِّبا لقصد التَّوفير والرِّبح ،... إلى غير ذلك من المخالفات.

ولا شكَّ أن هذا من تسويل الشَّيطان واستحواذه ، ومن تلاعبه بأفكار وعقول من ينقاد له ، ليستدرجهم لتحليل ما حرَّم الله.

٨) الاحتجاج بالقَدَر على فعل المعاصي، والرِّضا بالذُّلِّ والمَهانة :

وهذه الصُّورة من صور اللَّبْس والمغالطة، ليس القصد من إيرادها هنا الردَّ على المحتجِّين بالقَدَر على ضلالهم ومعاصيهم ، وإنما المقصود التَّنبيه على أنَّ من يحتجُّ بالقضاء والقَدَر ليبرِّر به انحرافه وكسله وضعفه إنما هو مغالِط وملبِّس ومدلِّس، ولكشف اللَّبْس الحاصل بين الحقّ والباطل في هذه المسألة، حيث إن المحتجَّ بالقَدَر على فعل المعاصي والإصرار عليها قد وقع في لبس عظيم، ويعلم هو بنفسه أن احتجاجه ليس في محلِّه، وإنما أورده لتبرير شهوته وضعفه، بدليل أنه في أمور الدُّنْيا وكسبها لا نجده يقعد محتجًّا بالقَدَر، وأن الله ﷻ كتب عليه الفقر أو الجوع أو عدم الزَّواج، بل إنا نجده يسعى ويفعل الأسباب الممكنة لدفع كل ذلك، فلماذا لا يوجد هذا الدفع أيضًا في أمور الدِّين وأمور الآخرة فيسعى للآخرة سعيها، ويأخذ بأسباب الهداية وأسباب النَّجاة من النَّار، وهي ميسَّرة لمن أرادها؟! لماذا هو جبريٌّ في أمور الدِّين والآخرة ، وقَدَرِيٌّ في أمور الدُّنْيا ؟ .

وقريب من الذين يحتجُّون بالقَدَر على فعل المعاصي والرِّضا بالواقع: أولئك الذين يتجرَّؤون على فعل المعاصي اعتمادًا على رحمة الله ﷻ ، نعم إن الله غفور رحيم ، ولكن ليس مقتضى هذه الرَّحمة أن يتجرَّأ هذا الملبِّس على المعصية ، وإنما المقصود منها: فتح باب التَّوبة والرَّحمة لمن وقع فيها وانتهى وندم ، فيقال له: لا تيأس ؛ فإن الله غفور رحيم .

٩) ترك الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والجهاد في سبيل الله خوف الابتلاء وتعريض النَّفس للفتن :

هناك من يترك الأمر والنَّهي عجزًا وكسلًا وجبنًا وبخلًا ، لكن لا يريد أن يعترف بهذه الصِّفات الذَّميمة، فبدلًا من الاعتراف بها والسَّعي للتخلُّص منها فإنه يحاول جاهدًا في تغطية ضعفه هذا بمبررات شرعيَّة، منها: الخوف من الفتن، واعتزال كل ما يعرِّض النَّفس للابتلاء والفتنة والهلَكة ، محتجًا بقاعدة "درء المفاسد مقدَّم على جلب المصالح"، والأمر في حقيقته ليس كذلك ، وإنما هو الخوف والجبن وإيثار السَّلامة وعدم تحمُّل أيِّ أذى أو مكروه في سبيل الله ﷻ.

يقول الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وَلما كَانَ فِي الأمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْي عَن الْمُنكر وَالْجِهَاد فِي سَبِيل الله من الِابْتِلَاء والمحن مَا يتَعَرَّض بِهِ الْمَرْء للفتنة صَار فِي النَّاس من يتعلَّل لترك مَا وَجب عَلَيْهِ من ذَلِك بِأَنَّهُ يطْلب السَّلامَة من الْفِتْنَة، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَن الْمُنَافِقين : ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة] »[1].

فلا يصحُّ لقائل أن يقول إنه يجب الابتعاد في الدَّعوة إلى الله ﷻ عن كلِّ ما من شأنه أن يجرَّ على الدَّاعية الأذى والمِحَن !، إن صاحب هذا القول قد نسِي أو تناسَى سنَّة الله ﷻ في الصِّراع بين الحقّ والباطل ، وسنَّته ﷻ في الابتلاء والتَّمحيص؛ قال ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ۖ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾﴾ [العنكبوت].

نعم إن من بيننا من يريد المغنَم من الدَّعوة ولا يريد المغرَم ، بدليل عدم

---

(١) الاستقامة ، لابن تيميَّة (٢/ ٢٨٧).

الإعداد والاستعداد لأي أذى يعترضه في الطَّريق ولو كان قليلًا ، وإنما مادام الأمن والسَّلامة والرَّاحة فهو نشيط ومتحرِّك، فإذا ظهرت المحن وبدايات الابتلاء والتَّمحيص آثر السَّلامة والرَّاحة ، وعلَّل ذلك بالابتعاد عن الفتن ودرء المفاسد .

ولا يعني ما سبق من الكلام أن يبحث الدَّاعية عن الأذى والابتلاء، كلا، فالمطلوب سؤال الله العافية وعدم تمنِّي البلاء ، كما لا يُفهَم منه أيضًا الدَّعوة إلى التَّهوُّر والطَّيش.. مَعَاذ الله ، فلابد من وجود المنطلقات الشَّرعيَّة في كل التصرُّفات ، لكن المراد أن لَا نغفل عن سنَّة الله سبحانه في ابتلاء المؤمنين، وأن نوطِّن أنفسنا على هذه الأمور، لأنه لابدَّ منها لكل من ادَّعى الإيمان وتصدَّر للدَّعوة والجهاد ، ولابدَّ منها ليتميَّز الخبيث من الطيِّب ، ولابد منها لتمحيص القلوب والصُّفوف، ولو قلَّبنا تاريخ الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام، وتاريخ الدُّعاة والمصلحين لرأينا ذلك المعلَم ظاهرًا وقاسمًا مشتركًا عندهم جميعًا .

وقريب من هؤلاء: أولئك الذين يبرِّرون كسلهم وحبَّهم للرَّاحة وضعف همَّتهم بالتَّواضع البارد والزُّهد في المسؤوليَّة ، لأنه يعرف أن الدَّعوة إلى الله سبحانه لا يعرف صاحبها الرَّاحة ، وتحتاج إلى همَّة عالية ، لكنه عوضًا من أن يعترف بضعفه هذا ، فإنه يغالط نفسه وغيره ، ويسعى إلى ترقيعه بإلقاء هذا الضَّعف على الخوف من المسؤوليَّة، واحتقار النَّفس ، وأن هناك من هو أولى وأتقى وأفضل إلخ.

١٠) المداهَنة وضعف الولاء والبراء بحُجَّة المُدَاراة والتَّسامح ومصلحة الأمَّة:

إن الخلط بين المُدَاراة والمُدَاهَنة، والتميُّع في الولاء والبراء بحُجَّة التَّسامح، كلُّ ذلك ينتج عنه آثار خطيرة على الدِّين وأهله، وذلك بما يفرزه هذا الخلط واللَّبْس من المغالطة والتَّضليل على الأمَّة في أن ما يقع من الملبِّسين من مُدَاهَنة وموالاة لأعداء هذا الدِّين إنما هو مُدَاراة .

وإيضاحًا لهذا الأمر: أنقل كلامًا لأهل العلم يُزِيل اللَّبْس في مسألة المُدَاراة

والمُدَاهَنة ، ومسألة الولاء والتَّسامح .

قال البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في باب المُدَاراة مع النَّاس: ويذكر عن أبي الدَّرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: « **إِنَّا لَنَكْشِرُ**(١) **فِي وُجُوهِ أَقْوَامٍ، وَإِنَّ قُلُوبَنَا لَتَلْعَنُهُمْ** »

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أَنَّهُ اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ: [**ائْذَنُوا لَهُ فَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ**] **أَوْ** [**بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ**]. فَلَمَّا دَخَلَ أَلَانَ لَهُ الْكَلَامَ. فَقُلْتُ لَهُ يَا رَسُولَ الله قُلْتَ مَا قُلْتَ، ثُمَّ أَلَنْتَ لَهُ فِي الْقَوْلِ. فَقَالَ: [**أَيْ عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْزِلَةً عِنْدَ الله مَنْ تَرَكَهُ - أَوْ وَدَعَهُ - النَّاسُ اتِّقَاءَ فُحْشِهِ**](٢).

ويعلِّق ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على حديث عائشة بقوله :

« قَالَ ابن بَطَّال: الْمُدَارَاةُ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُؤْمِنِينَ وَهِيَ خَفْضُ الْجَنَاحِ لِلنَّاسِ وَلِينُ الْكَلِمَةِ وَتَرْكُ الْإِغْلَاظِ لَهُمْ فِي الْقَوْلِ، وَذَلِكَ مِنْ أَقْوَى أَسْبَابِ الْأُلْفَةِ، وَظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْمُدَارَاةَ هِيَ الْمُدَاهَنَةُ فَغَلِطَ، لِأَن المداراة مَنْدُوبٌ إِلَيْهَا وَالْمُدَاهَنَةُ مُحَرَّمَةٌ، وَالْفَرْقُ أَنَّ الْمُدَاهَنَةَ مِنَ الدِّهَانِ وَهُوَ الَّذِي يَظْهَرُ عَلَى الشَّيْءِ وَيسْتر بَاطِنه، وفسرها الْعلمَاء بِأَنَّهَا مُعَاشَرَةُ الْفَاسِقِ وَإِظْهَارُ الرِّضا بِمَا هُوَ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِنْكَارٍ عَلَيْهِ، وَالْمُدَارَاةُ هِيَ الرِّفْقُ بِالْجَاهِلِ فِي التَّعْلِيمِ وَبِالْفَاسِقِ فِي النَّهْيِ عَنْ فِعْلِهِ وَتَرْكُ الْإِغْلَاظِ عَلَيْهِ حَيْثُ لَا يَظْهَرُ مَا هُوَ فِيهِ وَالْإِنْكَارُ عَلَيْهِ بِلُطْفِ الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا احْتِيجَ إِلَى تألُّفه وَنَحْو ذَلِك »(٣) .

ومن هذا يتبيَّن الفرق بين المُدَارَاةُ والمُدَاهَنَةُ ، وأنهما ضدَّان لا يجتمعان ، إذ إن المُدَارَاةَ صفة مدح وهي لأهل الإيمان ، بينما المُدَاهَنَةُ صفة ذمٍّ وهي لأهل النِّفاق ، فهل بقي بعد هذا البيان مجال للالتباس في هذا الأمر ؟ ! .

ثم إن مَكْمَن الخطر في هذا الخلط ليس في مداهنة الفسَّاق وأهل المعاصي من المسلمين فحسب ، وإنما الأخطر من ذلك هو : مداهنة الكفَّار بمشاربهم

---

(١) لَنَكْشِرُ : من الكَشْرِ وهو ظهور الأسنان، وأكثر ما يكون عند الضَّحِك وهو المراد هنا. (لتلعنهم) لتبغضهم.

(٢) الرِّوايتان أخرجهما البخاريُّ برقم (٦١٣١)، ومسلم برقم (٢٥٩١) .

(٣) فتح الباري ، لابن حجر العسقلاني (١٠/ ٥٢٨- ٥٢٩).

المختلفة تحت غطاء المُدَارَاةِ ومصلحة الأمَّة ، حتى اهتزَّ جانب الولاء والبراء الذي هو الرُّكن الرَّكين في عقيدة التَّوحيد، وبدأ حاجز البغض للكفر وأهله يضعف، بل اهتزَّ عند بعضهم، والسَّبب في ذلك: الجهل بحقيقة المُدَارَاةِ والمُدَاهَنَةِ ، أو المغالَطة فيهما عن علم وهوى .

١١) الانفتاح على الدُّنْيا والركون إليها، بحُجَّة التعفف عن النَّاس وإنفاق المال في وجوه الخير :

وفي هذه الصُّورة مدخل خفيٌّ للشَّيْطانِ يتسرَّب منه إلى نفس الإنسان، يبلغ اللَّبْس في هذا الأمر من الخفاء بحيث لا يفطن له إلا المجاهد لنفسه، المفتِّش لقلبه، الحذِر الخائف من الدُّنْيا وغرورها، ومكمن اللَّبْس هنا في أن التعفُّف عن النَّاس أمر مطلوب، ويحثُّ عليه الشَّرع في أكثر من آية وحديث، وكذلك الإنفاق في سبيل الله وبذل المال في أوجه البرِّ المختلفة، كلُّ هذا حقٌّ لا ريب فيه، لكن الشَّيطان لا يألو جهدًا في إغواء بني آدم وجرِّهم إلى حزبه خطوة خطوة، ولهذا: فهو يبدأ مع الإنسان ليجرَّه إلى الدُّنْيا وغرورها من باب التعفُّف عن النَّاس، ومساعدة المحتاج، وإغاثة الملهوف .. إلخ .

ثمَّ بعد ذلك، وبعد إشغاله بالمال وطرق جمعه ومشاكله وشبهاته نبحث عن صاحبنا الذي كنا نراه في لقاءات الخير والدَّعوة إلى الله ﷻ فلا نراه إلا قليلًا، وهكذا حتى ينفتح على الدُّنْيا، ويركن إليها، ويضع له الشَّيطان في كل وادٍ من أوديتها شغلًا وهَـمًّا يتشعَّب فيهما الفكر، ويتشتَّت فيهما الذِّهن ويتحوَّل المال المكتسَب إلى استثمارات جديدة، وتوسُّع في المباحات، وإسراف في المآكل والمراكب والمساكن ، وقد كان الهدف في البداية هو التعفُّف والإسهام في وجوه الخير والبرِّ .

والغريب في الأمر أن هذا المغالِط عندما يذكَّر بالآيات التي تحذِّر من الدُّنْيا، وسرعة زوالها، وخطر الرُّكون إليها ، فإنه بدلًا من أن يشعر بالخطر ويسعى لتدارك الأمر؛ فإنَّا نجده يصرُّ على المغالَطة واللَّبْس، ويقول: إن

التعفُّف عن النَّاس مطلوب، ولابد للدَّاعية أن يكون له مصدر يَستغنِي به عن النَّاس وينفع به دعوته، ويساهم في الخير، وهو يعلم أن ليس هذا قصده، وإنما أراد تغطية حبِّه للدُّنيا والرُّكون إليها بهذا الغطاء الشَّرعيِّ الذي لم يراع الضَّوابط الشَّرعيَّة فيه .

وقد يقول قائل : إذن ، ما العمل في مثل هذه الحالة، وبخاصَّة لمن أراد صادقًا أن يتعفَّف عن النَّاس وأن ينفع دعوته بالمال ؟

والجواب لا أملكه، لأنها معادلة صعبة يختلف حلُّها من شخص لآخر، ويكفي في حلِّها أن يعلم الله سبحانه من أنفسنا أننا نريد التعفُّف والبذل بصدق في سبيل الله ﷻ، فعندئذ يحفظنا برحمته من الدُّنْيا وزخرفها ، ويخرجها من قلوبنا لتبقى في أيدينا ، وكلُّ إنسان على نفسه بصيرة .

١٢) الاحتجاج بيسر الشَّريعة وضغط الواقع :

إن القول بيسر الشَّريعة وسماحتها حقٌّ لا شكَّ فيه، ولكنَّ الاحتجاج بهذا التَّيسير للتفلُّت من أحكام الشَّريعة والتَّحايل عليها، واتِّباع الهوى في الأخذ بالرُّخص والشُّذوذات الفقهيَّة ، كل هذا باطل وتلبيس وتضليل ، يتبنَّى ذلك أهلُ الأهواء الذين يتَّبعون الشَّهَوات، يريدون بذلك تحلُّل المجتمع المسلم من أحكام الشَّريعة باسم التَّيسير وترك التَّشديد، وصدق الله العظيم: ﴿**وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾**﴾[النِّساء].

ومن رحمة الله ﷻ أنه لم يَكِلْ مصالح العباد إلى أهواء البشر وشهواتهم ، بل وضع سبحانه شريعة كاملة مبرَّأة من الجهل والهوى، ومبرَّأة من النَّقص والقصور، لأن مصدرها منه سبحانه الذي له الأسماء الحسنى والصِّفات العُلَى، ولو أن تقرير مصالح العباد كان في أيدي البشر لحصل من ذلك شرٌّ وفساد كبير ، وذلك لما عليه البشر من الجهل والنَّقص والهوى والشَّهْوة ،

وهذا مشاهَد في الواقع ؛ فالمجتمعات التي لا يحكمها شرع الله ﷻ وتحكمها أنظمة البشر وقوانينهم نرى فيها من الفساد والشُّرور والظُّلم والاستعباد والضَّنك والضِّيق ما تعجُّ منه الأرض والسَّماوات ، وتبرأ منه الوحوش في البريَّات ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾ ﴾[المؤمنون].

إن الذين يتشدَّقون بالتَّيسير ويغالِطون به بغير علم ولا هدى من الله سبحانه، لو كان الأمر بأهوائهم لعطَّلوا كثيرًا من أحكام الشَّريعة التي قد يُظَن فيها المشقَّة والضِّيق مع أن مآلها اليُسر والسَّعادة في الدَّارين ، فالله ﷻ الرَّحيم بعباده ، هو الذي يعلم ما يصلح شؤونهم ، وييسِّر أمورهم ، ويعلم ما يشقُّ عليهم وما لا يشقُّ ، إنه حكيم عليم .

١٣) التَّشهير بالدُّعاة والمصلحين واغتيابهم بحُجَّة النَّصيحة والتَّحذير من الأخطاء:

عن أبي بَرْزَةَ الأسلَميِّ والبراءِ بن عازبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالا : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لاَ تَغْتَابُوا المُسْلِمِينَ، وَلاَ تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنِ اتَّبَعَ عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ**][1].

والمقصود من إيراد هذه الصُّورة هو الحذر من تزيين الشَّيطان وتلبيسه في إظهار الغِيبة أو النَّميمة أو التَّشهير في قالب النَّصيحة، والتَّحذير من الأخطاء والغَيْرَة على دين الله وتعظيم حرمات الله ﷻ، إن هذا هو الخطير في الأمر، إذ لو أن الواقع في الغِيبة أو النَّميمة أقرَّ بذنبه، واعترف بتقصيره، واستغفر لذنبه لكان الأمر أهون، أمَّا أن يكابر ويلبِّس على نفسه وعلى النَّاس بأن قصده النَّصيحة للأمَّة وتحذيرها من الأخطاء، وهو يعلم من نفسه غير ذلك من التَّشفِّي أو الحسد أو التَّهوين من شأن من وقع منه الخطأ وتنفير النَّاس عنه ،

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٨٨٠) ، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم (٧٩٨٤).

فكلُّ ذلك من المغالَطة وتلبيس الشَّيطان وتزيينه.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وَمِنْهُمْ مَنْ يُخْرِجُ الْغِيبَةَ فِي قَوَالِبَ شَتَّى. تَارَةً فِي قَالِبِ دِيَانَةٍ وَصَلَاحٍ فَيَقُولُ: لَيْسَ لِي عَادَةً أَنْ أَذْكُرَ أَحَدًا إلَّا بِخَيْرٍ وَلَا أُحِبُّ الْغِيبَةَ وَلَا الْكَذِبَ؛ وَإِنَّمَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحْوَالِهِ. وَيَقُولُ: وَاَللهِ إنَّهُ مِسْكِينٌ أَوْ رَجُلٌ جَيِّدٌ؛ وَلَكِنْ فِيهِ كَيْت وَكَيْت. وَرُبَّمَا يَقُولُ: دَعُونَا مِنْهُ الله يَغْفِرُ لَنَا وَلَهُ؛ وَإِنَّمَا قَصْدُهُ اسْتِنْقَاصُهُ وَهَضْمٌ لِجَانِبِهِ. وَيُخْرِجُونَ الْغِيبَةَ فِي قَوَالِبَ صَلَاحٍ وَدِيَانَةٍ يُخَادِعُونَ الله بِذَلِكَ كَمَا يُخَادِعُونَ مَخْلُوقًا؛ وَقَدْ رَأَيْنَا مِنْهُمْ أَلْوَانًا كَثِيرَةً مِنْ هَذَا وَأَشْبَاهِهِ ...

إلى أن قال: وَرُبَّمَا يَذْكُرُهُ عِنْدَ أَعْدَائِهِ لِيَشْتَفُوا بِهِ. وَهَذَا وَغَيْرُهُ مِنْ أَعْظَمِ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ وَالْمُخَادَعَاتِ لله وَلِخَلْقِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يُظْهِرُ الْغِيبَةَ فِي قَالِبِ غَضَبٍ وَإِنْكَارِ مُنْكَرٍ فَيُظْهِرُ فِي هَذَا الْبَابِ أَشْيَاءَ مِنْ زَخَارِفِ الْقَوْلِ وَقَصْدُهُ غَيْرُ مَا أَظْهَرَ. وَاَللهِ الْمُسْتَعَانُ »[1] .

ولكن يبقى هناك بعض القرائن التي تكشف هذا اللَّبْس والخداع في نفس المدَّعي للنُّصح والدِّيانة ، منها :

١ – التَّشهير والتَّعيير بالمنصوح خاصَّة إذا كان من المصلحين وأهل العلم.

٢ – الظُّلم، وعدم الإنصاف مع المنصوح ، وبخسه حقَّه ، وإخفاء خيره، وحسناته.

٣ – عدم التثبُّت ، والأخذ بالشَّائعات ، وتصيُّد الأخطاء والفرح بها .

٤ – تغليب سوء الظَّنِّ ، وتفسير المقاصد بدون دليل وبرهان .

٥ – المُداهَنة للظَّالمين والرُّكون إليهم .

١٤) التَّلبيس على النَّاس برفع لافتات إسلاميَّة تُخفِي وراءها الكيد للدِّين وأهله :

إن من أخطر ما يهدِّد الأمَّة في عقيدتها وأخلاقها أن تعيش في جوٍّ من

---

(١) مجموع الفتاوى ، لابن تيميَّة (٢٨/ ٢٣٨).

اللَّبْس والتَّضليل والخداع ، فلا ترى الحقّ بصورته المضيئة ولا الباطل بصورته القاتمة المظلمة، بل قد يصل بها المكر والخداع إلى أن ترى الحقّ باطلًا والباطل حقًّا، ويلتبس سبيل المجرمين بسبيل المؤمنين، ومن أعظم الالتباس بين السَّبيلين أن يقوم المجرمون من أعداء المسلمين سواء من الكفَّار الصُّرَحاء أو المنافقين الدُّخلاء برفع لافتات ظاهرها الإسلام ومحبَّة الدِّين والدَّعوة إليه ، وباطنها الكيد والمكر والخداع ، ويحصل من جرَّاء ذلك: أن يُخدَع كثيرٌ من المسلمين بهذه اللَّافتات فينشغلون بها، ويُثنون على أهلها بدلًا من فضحها وكشف عوارها وتعرية باطلها ، وعن خطورة التباس سبيل المجرمين بسبيل المؤمنين.

يقول ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فَإِن اللّبْس إِنَّمَا يَقع إِذا ضعُف الْعلم بالسَّبيلين أَو أَحدهمَا كَمَا قَالَ عمر بن الْخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ إِنَّمَا تنقض عرى الْإِسْلَام عُرْوَة إِذا نَشأ فِي الْإِسْلَام من لم يعرف الْجَاهِلِيَّة، وَهَذَا من كَمَال علم عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فَإِنَّهُ إِذا لم يعرف الْجَاهِلِيَّة وَحكمهَا وَهُوَ كل مَا خَالف مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ من الْجَاهِلِيَّة فَإِنَّهَا منسوبة إِلَى الْجَهْل، وكل مَا خَالف الرَّسُول فَهُوَ من الْجَهْل، فَمن لم يعرف سَبِيل الْمُجْرمين وَلم تستبن لَهُ أوشك أَن يظنّ فِي بعض سبيلهم أَنَّهَا من سَبِيل الْمُؤمنِينَ، كَمَا وَقع فِي هَذِه الأمَّة من أُمُور كَثِيرَة فِي بَاب الِاعْتِقَاد وَالْعلم وَالْعَمَل هِيَ من سَبِيل الْمُجْرمين وَالْكفَّار وأعداء الرُّسُل أدخلها من لم يعرف أَنَّهَا من سبيلهم فِي سَبِيل الْمُؤمنِينَ، ودعا إِلَيْهَا، وكفّر من خالفها، واستحل مِنْهُ مَا حرَّمه الله وَرَسُوله »[1].

وقد قصَّ الله عَزَّوَجَلَّ علينا في كتابه الكريم قِصَّة قوم من المنافقين أرادوا خداع الرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن معه من المؤمنين برفع لافتة إسلاميَّة على صرح من صروح النِّفاق ، لكنَّ الله عَزَّوَجَلَّ فضحهم وفضح لافتتهم وعرَّى باطلهم ، ليكونوا عبرة للمسلمين في وقتهم ، ولمن يأتي بعدهم ممن يرفع لافتة إسلاميَّة

(١) الفوائد ، لابن القيِّم ، صـ١٠٩.

يخفي وراءها خبثه ومكره ، ويكيد بها المسلمين في أيِّ زمان ومكان ، وهذه القِصَّة ذكرها الله ﷻ في سورة التَّوبة بما يعرف بمسجد الضِّرار ، حيث أنزل فيها قرآنًا يُتْلَى إلى قيام السَّاعة ، قال ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التَّوبة] .

واللَّافتات المرفوعة اليوم كثيرة وماكرة:

منها: ما يرفعه الذين بدَّلوا شرع الله ﷻ ورفضوا التَّحاكم إليه في بلادهم من لافتات يخدعون بها شعوبهم المسلمة، مثل إقامة الذِّكرى السنويَّة لإحراق المسجد الأقصى المبارك، فترى هؤلاء المجرمين الخائنين لله ﷻ ورسوله ﷺ يخدعون المسلمين بإحياء ذكرى حرق المَسجد الأقصى كأنهم يهتمُّون بالمسلمين ومقدَّساتهم، وهم قد خانوا الله ﷻ من قبل بتنحية شريعته واستحلال محرَّماته، وخانوا أمَّتهم بعد ذلك بالتذلُّل لليهود والنَّصارى، وما أصدق ما قاله الشَّيخ عبد الرَّحمن الدُّوسري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في محاضرة له مسجَّلة : « إن إحراق المسجد الأقصى بل إحراق مساجد الدُّنْيا كلها ليس أعظم جُرمًا من الاعتداء على شرع الله ﷻ وحكمه وسلطانه في الأرض من قبل الأنظمة التي تتباكى على الأقصى وإحراقه ».

١٥) إثارة الشُّبُهات للتَّلبيس على المسلمين:

إن دعاة البدع والتحزُّب يثيرون الشُّبُهات على النَّاس ويروِّجونها بينهم، وتأثيرها خطير على من سمعها وسلَّم بها، وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ من قبول الشُّبَه ممن عُرف بها

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: تَلاَ رَسُولُ الله ﷺ هَذِهِ الآيَةَ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾ ﴾[آل عمران]. قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [**فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى الله ، فَاحْذَرُوهُمْ**](١).

انظر إلى التَّوجيه النَّبويِّ [**فاحذروهم**].

وعن عِمرانَ بن حُصَين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [**مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ ، فَوَالله إِنَّ الرَّجُلَ لَيَأْتِيهِ وَهُوَ يَحْسِبُ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ فَيَتَّبِعُهُ ، مِمَّا يَبْعَثُ بِهِ مِنَ الشُّبُهات**](٢).

وذكر الذَّهبيُّ عن الثَّوريِّ أنه قال: " مَنْ أَصْغَى بِسَمْعِهِ إِلَى صَاحِبِ بِدْعَةٍ، وَهُوَ يَعْلَمُ خَرَجَ مِنْ عِصمَةِ الله، وَوُكِلَ إلى نفسه ".

قال الذَّهبيُّ: " قُلْتُ: أَكْثَرُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ عَلَى هَذَا التَّحذِيرِ يَرَوْنَ أَنَّ القُلُوْبَ ضَعِيْفَةٌ، وَالشُّبَهُ خَطَّافَةٌ "(٣).

قال العلامة ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يتكلَّم عن حديث: [**لَأَنْ يَمْتَلِئَ جَوْفُ أَحَدِكُمْ قَيْحًا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَمْتَلِئَ شِعْرًا**]: « فبيّن أَن الْجوف يمتلىء بالشِّعر فَكَذَلِك يمتلئ بالشُّبَه والشُّكوك والخيالات والتَّقديرات الَّتِي لَا وجود لَهَا والعلوم الَّتِي لَا تَنْفَع والمفاكهات والمضاحكات والحكايات وَنَحْوهَا وَإِذا امْتَلَأَ الْقلب بذلك جَاءَتْهُ حقائق الْقُرْآن وَالْعلم الَّذِي بِهِ كَماله وسعادته فَلم تَجِد فِيهِ فراغًا لَهَا وَلَا قبولًا »(٤).

وقال السَّعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:« الشُّبَه الباطلة والمقالات الفاسدة تختلف نتائجها

---

(١) متفق عليه: البخاري برقم (٤٥٤٧) ، ومسلم برقم (٢٦٦٥).

(٢) أخرجه أبو داود برقم (٤٣١٩)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع رقم (٦٣٠١).

(٣) سير أعلام النُّبلاء ، للحافظ الذَّهبي (١٣/ ٣٠٠).

(٤) الفوائد ، لابن القيِّم ، صـ٣٠.

وثمراتها باختلاف النَّاس فتُحدِث لأناس الجهل والضَّلال، ولأناس الشكَّ والارتياب، ولأناس زيادة العلم واليقين، أمَّا الذين تلتبس عليهم ويعتقدونها على علَّاتها أو يقلِّدون فيها غيرهم من غير معرفة بها بل يأخذونها مسلَّمة فهؤلاء يضِلُّون ويبقون في جهلهم يعمهون وهم يظنون أنهم يعلمون ويتَّبعون الحقّ وما أكثر هذا الصِّنف، فدهماء أهل الباطل كلهم من هذا الباب ضُلَّال مقلِّدون، وأمَّا الذين تُحدِث لهم الشكَّ فهم الحذَّاق ممن عرف الشُّبَه وميَّز ما هي عليه من التَّناقض والفساد ولم يكن عنده من البصيرة في الحقّ ما يرجع إليه، فإنهم يبقون في شكٍّ واضطراب يرون فسادها وتناقضها ولا يدرون أين يوجّهون، وأمَّا الذين عندهم بصيرة وعلم بالحقّ فهؤلاء يزدادون علمًا ويقينًا وبصيرة إذا رأوا ما عارض الحقّ من الشُّبَه واتَّضح لهم فسادها ورأوا الحقّ محكمًا منتظمًا، فإن الضدَّ يظهر منه بضدِّه ولهذا كانت معارضات أعداء الرُّسل وأتباعهم من أهل العلم والبصيرة لا تزيد الحقّ إلا يقينًا وبصيرة »[1].

وقال الإمام ابن بطَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «... فَكَّرْتُ فِي السَّبَبِ الَّذِي أَخْرَجَ أَقْوَامًا مِنَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَاضْطَرَّهُمْ إِلَى الْبِدْعَةِ وَالشَّنَاعَةِ، وَفَتَحَ بَابَ الْبَلِيَّةِ عَلَى أَفْئِدَتِهِمْ وَحَجَبَ نُورَ الحقّ عَنْ بَصِيرَتِهِمْ، فَوَجَدْتُ ذَلِكَ مِنْ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا: الْبَحْثُ وَالتَّنْقِيرُ ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ عَمَّا لَا يُغْنِي ، وَلَا يَضُرُّ الْعَاقِلَ جَهْلُهُ ، وَلَا يَنْفَعُ الْمُؤْمِنَ فَهْمُهُ. وَالْآخَرُ: مُجَالَسَةُ مَنْ لَا تُؤْمَنُ فِتْنَتُهُ ، وَتُفْسِدُ الْقُلُوبَ صُحْبَتُهُ »[2].

وليس الخطر في الشُّبُهات على العوام وطلاب العلم فحسب بل حتى على العلماء، وكيف لا وأنت تجد من العلماء من وقع في شيء من الإرجاء، ومنهم من وقع في شيء من القول بالقَدَر، ومنهم من وقع في شيء من التَّشيُّع، ومنهم

---

(١) مجموع الفوائد، العلامة ناصر السَّعدي ، صـ٢٢٩ .

(٢) الإبانة الكبرى، لابن بطَّة (١/ ٣٩٠).

من وقع في شيء من الاعتزال، ومنهم من قال بقول الأشاعرة وهم كثر، ومنهم من وقع في التَّصوُّف، ومنهم من وقع في التحزُّب، ومنهم ومنهم.

فلا سلامة للعلماء من ذلك إلا بكثرة اللُّجوء إلى الله ﷻ بالدُّعاء المشهور: [**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**][1]، وبقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [**اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ أَنْتَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**][2].

وبالسَّير على ما كان عليه السَّلف علمًا وعملًا في مواجهة أهل البدع، وتجنُّب حضور مجالسهم وسماع شُبَههم؛ لهذا فاحذروا الشُّبْهة لأنها باب شرٍّ، وتجنُّبها أمر سهل على من سهَّله الله عليه، وذلك بأن تتحرَّى أمرين اثنين جيدًا، وهما الكتاب والدَّاعية، أما الكتاب فلا تقرأ كتابًا إلا بعد عرضه على أهل العلم، وأما الدَّاعية أو العالم فلا تتلقَّى عنه شيئًا من دينك حتى تعلم صحَّة معتقده وسلامة منهجه.

*** من يُنشئ الفتن ؟**

قال الإمام الطَّرطوشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لا يؤتى النَّاس قطُّ من قبل علمائهم، وإنما يؤتون من قبل أنه إذا مات علماؤهم أفتى من ليس بعالم »[3].

وقال الإمام الشَّوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ترجمة علي بن قاسم حنش:

« ومن محاسن كلامه الذي سمعته منه: النَّاس على طبقات ثلاث: فالطَّبقة العالية: العلماء الأكابر وهم يعرفون الحقّ والباطل، وإن اختلفوا لم ينشأ عن اختلافهم الفتن لعلمهم بما عند بعضهم بعضًا. والطَّبقة السَّافلة: عامَّةٌ على الفطرة لا ينفرون عن الحقّ وهم أتباع من يقتدون به، إن كان محقًّا كانوا مثله، وإن كان مبطِلًا كانوا كذلك. والطَّبقة المتوسِّطة: هي منشأ الشرِّ

---

(١) أخرجه الترمذي برقم (٢١٤٠)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٨٠١).

(٢) أخرجه مسلم برقم (٧٧٠).

(٣) الاعتصام، للشَّاطبيّ (٢/ ١٧٣).

وأصل الفتن النَّاشئة في الدِّين، وهم الذين لم يمعنوا في العلم حتى يرتقوا إلى رتبة الطَّبَقة الأولى، ولا تركوه حتى يكونوا من أهل الطَّبَقة السَّافلة، فإنهم إذا رأوا أحدًا من أهل الطَّبَقة العليا يقول مالا يعرفونه مما يخالف عقائدهم التي أوقعهم فيها القصور فوَّقوا إليه سهام التَّقريع ونسبوه إلى كل قول شنيع، وغيَّروا فطر أهل الطَّبَقة السُّفلى عن قبول الحقّ بتمويهات باطلة، فعند ذلك تقوم الفتن الدِّينيَّة على ساق" (١).

ثم قال الشَّوكاني: « وَهَذِه قَاعِدَة مطَّردَة في كل عَالم يتبحَّر في المعارف العلميَّة، ويفوق أهل عصره، ويدين بِالْكتاب وَالسّنَّة، فإنه لَا بُد أَن يستنكره المقصِّرون، وَيَقَع لَهُ مَعَهم محنة بعد محنة، ثمَّ يكون أمره الْأَعْلَى وَقَوله الأولى وَيصير لَهُ بِتِلْكَ الزَّلازل لِسَان صدق في الآخرين وَيكون لعلمه حَظٌّ لَا يكون لغيره ...» (٢).

وقال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « لَا آفَة على الْعُلُوم وَأَهْلهَا أضرّ من الدخلاء فِيهَا وهم من غير أَهلهَا، فَإِنَّهُم يجهلون ويظنون أَنهم يعلمُونَ، ويفسدون ويقدرون أَنهم يُصلِحون »(٣).

وقال الشَّاطبيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وَالرَّابعُ: أَنَّ كُلَّ رَاسِخ لَا يَبْتَدِعُ أَبَدًا، وَإِنَّمَا يَقَعُ الِابْتِدَاعُ مِمَّنْ لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي ابْتَدَعَ فِيهِ، حَسْبَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْحَدِيثُ، وَيَأْتِي تَقْرِيرُهُ بِحَوْلِ الله فَإِنَّمَا يُؤْتَى النَّاسُ مِنْ قِبَلِ جُهَّالِهِمُ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عُلَمَاءُ.

وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ، فَاجْتِهَادُ مَنِ اجْتَهَدَ مَنْهِيٌّ عَنْهُ إِذْ لَمْ يَسْتَكْمِلْ شُرُوطَ الِاجْتِهَادِ، فَهُوَ عَلَى أَصْلِ الْعُمُومِيَّةِ ...»(٤).

وقال بعض العلماء: « لو سكت من لا يعلم حتى يتكلَّم من يعلم لانتهى الخلاف ».

---

(١) البدر الطَّالع بمحاسن مَن بعد القرن السَّابع ، للشَّوكاني (١/ ٤٧٣) .

(٢) المصدر نفسه (١/ ٦٥).

(٣) الأخلاق والسِّير ، صـ٩١.

(٤) الاعتصام ، للشَّاطبيّ (١/ ١٩٢).

وقال صاحب "رسائل الإصلاح": « إن فلاحَ الأمَّة في صلاح أعمالها، وصلاحَ أعمالها في صحَّة علومها، وصحَّة علومها أن يكون رجالها أمناء فيما يروون أو يصفون، فمن تحدَّث في العلم بغير أمانة فقد مسَّ العلم بقَرحة، ووضع في سبيل فلاح الأمَّة حجَر عَثْرة »[1].

* وقفـة تدبُّـر :

قال ﷻ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان].

قال الشَّنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وَمِنْ أَسْرَارِ هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ الْكُبْرَى أَنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى صَرَّحَ بِأَنَّ الْحِكْمَةَ الَّتِي خَلَقَ الْخَلْقَ مِنْ أَجْلِهَا هِيَ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، وَلَمْ يَقُلْ: أَيُّهُمْ أَكْثَرُ عَمَلًا، فَالِابْتِلَاءُ فِي إِحْسَانِ الْعَمَلِ "[2].

وقال يحيي بن معاذ الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « اخْتِلَافُ النَّاسِ كُلِّهِمْ يَرْجِعُ إِلَى ثَلَاثَةِ أُصُولٍ، فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا ضِدٌّ، فَمَنْ سَقَطَ عَنْهُ، وَقَعَ فِي ضِدِّهِ: التَّوْحِيدُ وَضِدُّهُ الشِّرْكُ، وَالسُّنَّةُ وَضِدُّهَا الْبِدْعَةُ، وَالطَّاعَةُ وَضِدُّهَا الْمَعْصِيَةُ »[3].

قال ﷻ : ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر] .

قال ابن القيِّم: « فتواصَوا بالحقّ الذي يدفع الشُّبُهات، وبالصَّبرِ الذي يكفُّ عن الشَّهَوات »[4].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « وأمَّا فتنة الشُّبُهات والأهواء المضلَّة فبسببها تفرَّق أهل القبلة وصاروا شيعًا وكفَّر بعضهم بعضًا، وأصبحوا أعداءً وفرقًا

---

(١) رسائل الإصلاح (١/ ١٣).
(٢) أضواء البيان ، للشَّنقيطيّ ، (٢/ ١٧٢)..
(٣) الاعتصام ، للشَّاطبيّ (١/ ٩١).
(٤) إغاثة اللَّهفان ، لابن القيم (٢/ ١٦٧).

وأحزابًا، بعد أن كانوا إخوانًا قلوبهم على قلب رجل واحد، فلم ينجُ من هذه الفرق كلِّها إلا الفرقة الواحدة النَّاجية وهم المذكورون في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [**لاَ يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ الله، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ الله وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ**][(١)(٢)].

ومن أبرز علامات المفتون ضعف بصيرته بسبب فتنة الشَّهوات ، فهو متعلِّق بما زيِّن له من حبُّ الشَّهوات، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى :

﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴿١٤﴾ ﴾ [آل عمران] .

وقال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « اللَّهُمَّ إِنَّا لاَ نَسْتَطِيعُ إِلاَّ أَنْ نَفْرَحَ بِمَا زَيَّنْتَهُ لَنَا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ أُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ »[(٣)].

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ : « وَفِي هَذَا الْأَثَرِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ فَاعِلَ التَّزْيِينِ الْمَذْكُورَ فِي الْآيَةِ هُوَ اللهُ، وَأَنَّ تَزْيِينَ ذَلِكَ بِمَعْنَى تَحْسِينِهِ فِي قُلُوبِ بَنِي آدَمَ، وَأَنَّهُمْ جُبِلُوا عَلَى ذَلِكَ، لَكِنَّ مِنْهُمْ مَنِ اسْتَمَرَّ عَلَى مَا طُبِعَ عَلَيْهِ مَنْ ذَلِكَ، وَانْهَمَكَ فِيهِ وَهُوَ الْمَذْمُومُ، وَمِنْهُمْ مَنْ رَاعَى فِيهِ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَوَقَفَ عِنْدَ مَا حُدَّ لَهُ مِنْ ذَلِكَ، وَذَلِكَ بِمُجَاهَدَةِ نَفْسِهِ بِتَوْفِيقِ اللهِ تَعَالَى لَهُ، فَهَذَا لَمْ يَتَنَاوَلْهُ الذَّمُّ، وَمِنْهُمْ مَنِ ارْتَقَى عَنْ ذَلِكَ فَزَهِدَ فِيهِ بَعْدَ أَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ وَأَعْرَضَ عَنْهُ مَعَ إِقْبَالِهِ عَلَيْهِ وَتَمَكُّنِهِ مِنْهُ، فَهَذَا هُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ، وَإِلَى ذَلِكَ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِ عُمَرَ "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ أُنْفِقَهُ فِي حَقِّهِ" »[(٤)].

قال العلَّامة السَّعدي رَحِمَهُ اللَّهُ: « وخَصَّ هذه الأمور المذكورة لأنها أعظم

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٦٤١) .

(٢) كشف الكُربة في وصف أهل الغُربة ، لابن رجب الحنبلي(١/ ٣١٩) .

(٣) أورده البخاري: ك: الرِّقاق ، ب: قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [هَذَا المَالُ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ].

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٢٥٩).

شهوات الدُّنيا وغيرها تبع لها ... فلما زُيِّنت لهم هذه المذكورات بما فيها من الدَّواعي المثيرات، تعلَّقت بها نفوسهم ومالت إليها قلوبهم، وانقسموا بحسب الواقع إلى قسمين: قسم جعلوها هي المقصود، فصارت أفكارهم وخواطرهم وأعمالهم الظَّاهرة والباطنة لها، فشغلتهم عما خُلقوا لأجله، وصحبوها صحبة البهائم السَّائمة، يتمتَّعون بلذَّاتها ويتناولون شهواتها، ولا يبالون على أيِّ وجه حصَّلوها، ولا فيما أنفقوها وصرفوها، فهؤلاء كانت زادًا لهم إلى دار الشَّقاء والعناء والعذاب ، والقسم الثَّاني: عرفوا المقصود منها، وأن الله جعلها ابتلاءً وامتحانًا لعباده، ليعلم من يقدِّم طاعته ومرضاته على لذَّاته وشهواته، فجعلوها وسيلة لهم وطريقًا يتزوَّدون منها لآخرتهم، ويتمتَّعون بما يتمتَّعون به على وجه الاستعانة به على مرضاته، قد صحبوها بأبدانهم وفارقوها بقلوبهم، ... فجعلوها معبرًا إلى الدَّار الآخرة ومتجرًا يرجون بها الفوائد الفاخرة، فهؤلاء صارت لهم زادًا إلى ربِّهم »[1].

ولهذا كان السَّلف يقولون: « احذروا من النَّاس صنفين: صاحب هوى قد فتنه هواه ، وصاحب دنيا أعمته دنياه ».

وكانوا يقولون: « احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون ».

لأن الأول لم يصبر على الشَّهَوات، والثاني زاغ بالشُّبُهات. والأول لمَّا اغترَّ بنجاته من فتنة الشُّبُهات، وقع في فتنة الشَّهَوات، والثَّاني لمّا اغترَّ بنجاته من فتنة الشَّهَوات، وقع في فتنة الشُّبُهات.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « ومن تأمَّل الفساد الدَّاخل على الأمَّة وجده من هذَيْن المفتونَيْن »[2].

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « فلما دخل أكثر النَّاس في هاتين الفتنتين أو

---

(١) تيسير الكريم الرَّحمن في تفسير كلام المنَّان ، للعلامة السَّعدي ، صـ ١٢٣ .

(٢) انظر :إغاثة اللهفان ، لابن القيم (٢/ ١٦٧) .

إحداهما، أصبحوا متقاطعين ، متباغضين ، بعد أن كانوا إخوانًا متحابِّين متواصلين ، فإن فتنة الشَّهَوات عمَّت غالب الخلق ففُتِنوا بالدُّنْيا وزهرتها؛ وصارت غاية قصدهم؛ لها يطلبون، وبها يرضون، ولها يغضبون، ولها يوالون وعليها يعادون، فقطعوا لذلك أرحامهم، وسفكوا دماءهم وارتكبوا معاصي الله بسبب ذلك »[1].

قال أهل العلم: عوائق التوحيد الشُّبُهات والشَّهَوات، فمن سَلِم من الشَّهْوة وقع في الشُّبْهة كحال أهل البدع، ومن سَلِم من الشُّبْهة وقع في الشَّهْوة كحال فسَّاق أهل السُّنَّة، ومن سَلِم من الشُّبْهة والشَّهْوة فهم أهل الله وخاصَّته، ومن لم يَسْلَم من الشُّبْهة والشَّهْوة فهم أهل الشَّيطان وخاصَّته، الذين ما عندهم إلا التَّهميش والتَّعيير غيظًا وحسدًا ، ولا يضرُّ السَّحابَ نبحُ الكلاب!

فمن تأمل فساد أمَّة الإسلام وجده من قِبل هذين المفتونَيْنِ؛ العالم الفاجر، والعابد الجاهل.

فالأول فجوره بسبب الشَّهْوة ، والثاني فتنته بسبب الشُّبْهة.

وإنما كان فساد الأمَّة من هذين الصِّنفَين لعظيم أثرهما على النَّاس صلاحًا وفسادًا.

فالأول: فجوره لا كفجور غيره ؛ لأنه متَّبَعٌ ، ومعظّمٌ ، ومسموع القول، هذا من جهة، ومن جهة أخرى: انظر إلى أثره السَّيِّئ على الدِّين عندما يتَّخذه الفسَّاق والمبتدعة ذريعة وحُجَّة لفسقهم وبدعهم.

إذا كانَ ربُّ البيتِ لِلدُّفِّ ضارِبًا ** فَشِيمَةُ أهلِ البيتِ الرَّقْصُ واللَّعِبُ

والثَّاني: متعبِّد متنسِّك على غير هُدى، يُضلُّ من يراه من العوامِّ والجهلة بالدِّين؛ لأنه لبس ثوب الصَّلاح والسَّكينة.

وأصل الشَّهْوة: نزوع النَّفس إلى ما تريده ، وتحبُّه ، وترغبه.

---

(١) كشف الكُربة في وصف حال الغُربة ، لابن رجب صـ ٣١٨.

والنَّفس تتجاذبها شهوات كثيرة منها: شهوة النِّساء ، والبنين ، والمال ، والأنعام ، والحرث ، وشهوة البطن ، وشهوة حبِّ الظُّهور ، وشهوة الرِّئاسة والوصول إلى القمة ، وشهوة العجب ، وشهوة الغرور ، وشهوة الراحة والنَّوم والدَّعَة ، وشهوة حبِّ الذَّات ، وشهوة حبِّ الانتقام والانتصار للنَّفس ، وشهوة القِيلِ والقالِ ، ...الخ

فإن لم يتدارك المسلم نفسه بالتَّهذيب والتَّزكية والتَّوجيه الصَّحيح فإنها تقع في وَحَل تلك الشَّهَوات، وتصبح أسيرة لها.

وأصل الشُّبْهة من الاشتباه، وهو الاختلاط وعدم التَّميُّز، وسمِّيت كذلك لاشتباه الحقّ والباطل فيها ؛ ذلك وأنّ الشُّبْهة مزوَّقة مزيَّنة ، تلبس لباس الحقّ على جسم الباطل ، فيغترّ برونقها من لا يعرف إلا الظَّاهر ، وتغرُّه المظاهر ، أما الحكيم الحاذق فإنه لا يُغريه بريقها ، ولا يغرُّه بهرجها ، بل يعرف وجهها الحقيقيَّ من المزيَّف ؛ لأنه على بصيرة من ربِّه.

اسأل الله العظيم ربَّ العرش العظيم أن يقيَنا فتنتي الشَّهَوات والشُّبُهات، وفتنتي العالم الفاجر والعابد الجاهل.

*** كيف تعرف الشُّبْهة وتدفعها؟!**

قال الإمام ابن قيّم الجوزيَّة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « الشُّبْهة: واردٌ يَرِدُ على القلب يحولُ بينهُ وبينَ انكشافِ الحقّ له، فمتى باشرَ القلبُ حقيقَةَ العلمِ لم تؤثِّر تلك الشُّبْهة فيه، بل يقوى علمُه ويقينُه بردِّها ومعرفَةِ بطلانها، ومتى لم يُباشِرْ حقيقَةَ العلمِ بالحقّ قلبُهُ قَدَحَت فيه الشكَّ بأوَّلِ وهلةٍ، فإن تَدارَكَها وإلاّ تتابعت على قلبه أمثالُها، حتى يَصيرَ شاكّاً مرتاباً.

والقلبُ يتواردُهُ جيشانِ من الباطل: جيشُ شهواتِ الغيِّ وجَيشُ شُبُهاتِ الباطلِ؛ فأيّما قلبٍ صغا إليها ورَكَنَ إليها تشرَّبَها وامتلأ بها فينضَحُ لسانُهُ وجوارحُهُ بموجبها، فإن أُشرِبَ شبهات الباطلِ تفجّرت على لسانِه الشُّكوكُ والشُّبُهات والإيراداتُ، فيظنُّ الجاهلُ أنَّ ذلكَ لِسَعَةِ علمهِ وإنّما ذلكَ من

عَدَم علمهِ ويقينه، وقال لي شيخُ الإسلام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ - وقد جعلتُ أوردُ عليه إيرادًا بعدَ إيراد - : "لا تجعَل قلبَك للإيراداتِ والشُّبُهات مثل السِّفِنْجَة، فيتشرَّبها فلا ينضحَ إلا بها، ولكن اجعله كالزُّجاجة المُصْمتَة تَمُرُّ الشُّبُهات بظاهرها، ولا تستقرُّ فيها، فيراها بصفائه، ويدفعُها بصلابته، وإلا فإذا أشرَبْتَ قلبَك كلَّ شُبهةٍ تمرُّ عليها صارَ مَقرًّا للشُّبهات".

فما أعلمُ أني انتفعت بوصيَّة في دفع الشُّبُهات كانتفاعي بذلك.

وإنما سُمِّيت الشُّبْهة شُبهةً لاشتباه الحقّ بالباطلِ فيها؛ فإنها تلبسُ ثوبَ الحقّ على جسمِ الباطلِ وأكثرُ النَّاس أصحابُ حُسنٍ ظاهرٍ، فينظرُ الناظر فيما أُلبِسَتْهُ من اللِّباسِ فيعتقدُ صحَّتَها.

وأمَّا صاحبُ العلم واليقينِ ؛ فإنه لا يغترُّ بذلك، بل يُجاوِزُ نَظرَهُ إلى باطِنها وما تَحتَ لباسها، فينكشفُ له حقيقتُها، ومثالُ هذا: الدِّرهم الزَّائف؛ فإنَّه يغترُّ به الجاهلُ بالنَّقد نظرًا إلى ما عليه من لباسِ الفضَّةِ، والنّاقدُ البصيرُ يُجاوزُ نَظَرَهُ إلى ما وراءَ ذلكَ فيطَّلعُ على زيفِهِ.

فاللَّفظ الحسن الفصيح هو للشُّبهة بمنزلة اللِّباس من الفضَّةِ على الدِّرهم الزَّائفِ، والمعنى كالنُّحاسِ الذي تحته.

وكلُّ أهلِ نِحلَةٍ ومقالةٍ يكسونَ نِحلَتهم ومقالتَهم أحسَنَ ما يَقدِرونَ عليه من الألفاظ، ومقالَةَ مُخالفيهم أقبحَ ما يقدرونَ عليه من الألفاظ.

ومن رزقه الله بصيرةً فهو يكشفُ بها حقيقَةَ ما تحتَ تلكَ الألفاظِ من الحقّ والباطلِ، ولا يغترُّ باللَّفظ، كما قيل في هذا المعنى:

تقولُ هذا جَنْيُ النَّحْلِ تمدحُهُ ... وإنْ تَشَأْ قلتَ ذا قَيءُ الزَّنابيرِ

مدحًا وذمًّا وما جاوَزْتَ وصْفَهُما ... والحقّ قد يَعتريه سوءُ تعبيرِ

فإذا أردتَ الاطِّلاعَ على كُنهِ المعنى: هل هو حقٌّ أو باطلٌ ؟ فجرِّدهُ من لباسِ العبارة ، وجرِّد قلبك من النَّفرَةِ والميل ، ثمَّ أعطِ النَّظَرَ حقَّهُ ، ناظرًا بعينِ الإنصافِ ، ولا تكُن ممن ينظرُ في مقالَةِ أصحابهِ ومن يُحسِنُ ظنَّهُ به نظرًا تامًّا بكلِّ قلبهِ، ثم ينظرُ في مقالَةِ خصومهِ وممن يسيءُ ظنَّه به كنَظَرِ

الشَّزَرِ والملاحظةِ ، فالنَّاظرُ بعينِ العداوَةِ يرى المحاسنَ مساوئَ ، والنَّاظرُ بعينِ المحبَّة عكسُهُ.

وما سَلِمَ من هذا إلا من أرادَ الله كرامَتَهُ، وارتضاهُ لقبول الحقّ، وقد قيل :

وعينُ الرِّضا عن كُلِّ عَيْبٍ كليلَةٌ *** كما أنَّ عينَ السُّخْطِ تبْدِي المَساوِيَا

وقال آخَرُ:

نَظَروا بعينِ عداوةٍ لو أنَّها *** عينُ الرِّضا لاستَحسنوا ما استقبحوا

فإذا كانَ هذا في نظرِ العينِ الذي يُدرِكُ المحسوسات ، ولا يتمكَّن من المكابرةِ فيها، فما الظنُّ بنظرِ القلبِ الذي يُدرِكُ المعانيَ التي هي عُرضَةُ المكابرة ؟! »[1].

لهذا يجب أن تحرص على ما يلي:

أولًا: التحصُّن بالعلم النَّافع والإيمان الصَّادق، وذلك بتعلُّم أحكام القرآن وفقه السُّنَّة، وأن نعرف مراد الله من كتابه ، ومراد نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حديثه.

ثانيًا: الابتعاد عن استماع الشُّبُهات سواءً طُرِحت في برامج فضائيَّة أو مقالات صحفيَّة ، ولا يُستثنَى إلا أهلُ العلم الواعون لما يُقال.

كان مالك رَحِمَهُ اللَّهُ إذا جاءه بعض أهل الأهواء يقول له: "أنا على بيِّنة من ربِّي وأنت شاكٌّ، اذهب إلى شاكٍّ مثلك"، [**فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى الله ، فَاحْذَرُوهُمْ**][2] كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث.

ثالثًا: التَّسليم التَّام لكلام الله وكلام رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو جاء في نفسك شيءٌ تعوَّذْ بالله من الشَّيطان ، وقاومه ، وثبِّت قدميك على طريق الإسلام ، وهو الاستسلام لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

رابعًا: الردُّ إلى أهل العلم ﴿ **لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾ [النِّساء: ٨٣]

---

(١) مفتاح دار السَّعادة، ابن القيِّم ، صـ ١٤١ .

(٢) سبق تخريجه .

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[النَّحل: ٤٣]، فلا بد من الرُّجوع إلى أهل العلم.

خامسًا: لا بد لأهل العلم من الردِّ على الشُّبُهات، والدِّفاع عن الشَّريعة، وتوضيح الدِّين، وأن يستعلنوا بالحقّ، ويردُّوا على أهل الباطل، فإنَّنا إن لم نأمرْ بالمعروف وننْهَ عن المنكر فلا خير فينا.

ماذا نقول لربِّنا ﷻ يوم الدِّين ؟ ومَن للدِّين إذا تركناه ؟ ومَن للحقِّ إذا لم ننصرْه ؟، ومَن للشَّريعة إذا لم ندافعْ عنها ؟!

****